مكتبة ٦٤٢

مُلتقى البحرين

وليد سيف

WALID SAIF

رواية

الأهلية

وليد سيف

مُلتقى البَحْرين

مكتبة | 642

الأهليّة للنشر والتوزيع
e - mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

مُلتقى البَحْرَين/ رواية
وليد سيف / الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2019
حقوق الطبع محفوظة
◆

تصميم الغلاف: ريان سلعوس / الأردنّ

◆

الصف الضوئي: إيمان زكريا خطاب، عمان، هاتف 95349156 7 00962

مكتبة
t.me/t_pdf

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2019/7/3750)
الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9957 - 39 - 306 - 9

رواية

وليد سيف

مُلتقى البحرين

مكتبة | 642

في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كان العالم الإسلامي قد تقطّع إلى ممالك وإمارات متفرّقة على تخوم الخلافة وأطرافها البعيدة، تحكمها سلالات متصارعة من أعراق مختلفة ومختلطة، وتهددها ممالك مجاورة من غير المسلمين.

مكتبة
t.me/t_pdf

1

... غداً يوم الزينة إذ يُحشر الناس ضحىً لاستقبال سلطانهم العائد مظفراً من غزوته الأخيرة لعدوّ الأمّة والملّة. الكل سيحظى برؤية السلطان معتدلاً على بغلته المطهّمة المحلّاة بالزينة اللائقة في موكبه الحافل، يحفّه الحرس السلطانيّ في ثيابهم المزركشة وعدتهم العسكريّة، بينما يتقدّم بين يديه قارعو الطبول والصناج، ويتتابع خلفه كبار القادة والوزراء والأعيان وأهل الخدمة. وعلى طول الطريق الذي يقطع وسط المدينة حتى القصر السلطاني، يصطف العامة جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً يلوّحون بأغصان الشجر والمناديل الملوّنة ويهتفون بحياة السلطان والقائد الفذ الذي غزا حتى الآن ثلاثين غزوة لم تهزم له فيها راية واحدة، فخط بذلك لنفسه ولدولته وشعبه تاريخاً مجيداً يكتب بماء الذهب، وجاءته الملوك منصاعة تقبّل الأرض بين يديه وتخطب ودّه وسلمه، وتؤدي له فروض الطاعة بالذهب والفضة والخيول المسوّمة. فكيف لا يعظّمه شعبه ويبذل له غاية الحب والولاء والفداء ويرفعه على عرش القلوب، وهو الذي صنع له العزة بعد ذلّة والأمن بعد خوف. فقبل أن يتولى حكم البلاد والعباد كان البلد نهباً لكل غازٍ وطامع، يغيرون على الثغور متى شاؤوا فينهبون ويقتلون ويسبون دون رادع، ويقتطعون من أطراف

الدولة ما تتيحه لهم قوتهم الغاشمة، وما يغريهم به ضعف المغلوب. فقد كان السلطان السابق عاجزاً ضعيفاً خوّاراً، يؤثر الدعة والسلامة على المجازفة والإقدام، وأن ينفق المال على متعه ولذاته بدلاً من إنفاقها على تحصين الحدود وحشد الجيوش وتسليحها، وأن يعيش سالماً ناعماً بين جواريه وخدمه على أن يموت ماجداً على ظهر جواده. فما الذي ينفعه ميتاً أن يقال: كان بطلاً مقداماً وقائداً فذاً. وما لا تدفعه القوة من المخاطر الكبيرة، ربما افتدته الإتاوات الباهظة والتنازلات المذلة عن بعض أراضي الدولة حتى ذهب ربع المملكة في عهده. وهكذا اجتمعت على القوم ذلّة الهزائم وعبء المكوس والمغارم التي يجب أن يؤدوها للسلطان لينفق على متعه من جهة، وعلى رشوة الأعداء اتقاءً للمزيد من اعتداءاتهم، من جهة أخرى. وما دام التهديد بغزو المملكة تجارة مربحة، فإن الأعداء لا يكفون عن التهديد، والسلطان السابق لا يكف عن الدفع، والشعب يسدد مرغماً من قوت أبنائه، حتى افتقر الناس وضاقت بهم السبل واستوى عند شطر منهم الموت والحياة، فلم يجدوا بداً من التمرد والعصيان. وإذا كان جيش السلطنة وشرطتها أضعف من أن يجابهوا العدو الغازي، فإنهم أقوى من أن تغلبهم عصبة من أهل الشرور والمعاصي في أوساط الشعب، حتى راج بينهم القول: «أسد عليَّ وفي الحروب نعامة». وإذ تكرر الشغب والعصيان، تكرر البطش والتنكيل، وفي كل مرة يزدادان شدّة وترويعاً لعل ذلك يكون رادعاً. ولكن كيف تردع من فَقَد الحرص على حياته!

حتى إذا استيأس الناس وظنوا أن الظلم الذي عمّهم لا يرفعه إلا قيام الساعة التي اجتهدوا في استقراء علاماتها أتاهم أمر

الله بالفرج والخلاص والحريّة، حين كانوا على شفا مذبحة عظيمة مروّعة أمر بها السلطان، وحشد لها جلّ جيشه وشرطته لمواجهة تمرد جديد تداعى إليه أهل الشرور والمعاصي الذين صاروا جلّ الشعب! ولكن القائد الذي كلّف قيادة العسكر مع أوامر قاطعة بإخماد الثورة بأقسى السبل، بدلاً من أن يتوجه وعسكره إلى حشود العصاة، توجه إلى قصر السلطان وضرب الطوق عليه، وبعد اشتباك قصير مع الحرس السلطاني وخصيان القصر، تمكن من اقتحامه، وأخرج السلطان العجوز المتصابي منه مذموماً مدحوراً يرتجف كورقة الخريف. لم يصدّق الناس ما حدث لأول وهلة. أما زالت المعجزات تحدث حقاً؟! لعل البعض قد أسرف في استقراء علامات القيامة التي تمنى أن تكون وشيكة، وما زال في الدنيا بقية خير تبشر بتبدل الأحوال. فسبحان الذي بيده مقاليد الأمور كلها يُقلّبها كيف يشاء وأنّى يشاء. من كان يظن أن الخلاص يأتي على يد واحد من قادة الجيش مع نفر من أصحابه؟ ولسوف يعرف الناس قريباً أن الأمر لم يكن مرتجلاً في ساعته، وأن القائد المخلّص مكث زمناً يدبّر بليل، ويدعو بدعوته سرّاً من يثق به من رفاقه العسكر المُقدّمين، بعد أن يعجم عيدانهم ويختبر صدقهم وصلابتهم واستعدادهم للمجازفة والتضحية في سبيل الشعب المنكوب. وأعانه على ذلك أن جلّ كبار العسكر كانوا ناقمين على أوضاع الجيش وأوضاع الشعب. فالهزائم المتتالية والإذعان المذل للعدو أورثهم شعوراً بالمهانة. وكان معظمهم قد جاء من أوساط العامة، فأبناء الأعيان انصرفوا عن أعمال العسكر إلى ضِياعهم وتجاراتهم ومناصب الدولة المجزية. فكان لا بدّ أن يصعد إلى مراتب الجيش العليا من جاء من بيئات

شعبية وريفية متواضعة. ولم يكن من الصعب أن يضعوا ثقتهم في القائد المخلص لما اختبروا من كفايته وإخلاصه وأخلاقه. وقد صدقوا وعوده بأنه إذا تمّ لهم الأمر وخلعوا السلطان وحاشيته، فسوف يكون الأمر شورى بينهم، بل يضمّون إلى مجلسهم نخبة من أهل البلد الثقات العدول، ليكونوا معهم أهل الحل والعقد. إذ لا يحسن أن يستبدّ أمراء العسكر بالأمر كلّه. صحيح أن مناجزة الأعداء الغزاة واسترجاع الأراضي المحتلة ومعها الكرامة المهدورة ستكونان في مقدمة الغايات، وهو ما يقتضي إعادة بناء الجيش وتسليحه وتدريبه، إلا أن مصالح الدولة ودواوينها أعظم من ذلك، وأكبر من أن ينهض بها أصحاب السلاح وحدهم. والرأي كما قيل مقدّم على شجاعة الشجعان. وإصلاح ما أفسده العهد المشؤوم يحتاج إلى حشد جهود عظيمة من أهل التدبير وذوي الحجا والخبرة والحكمة في كل مجالات الحياة والسياسة. وإصلاح شؤون العباد في الداخل شرط أساس من شروط القوة والنصر على عدو الخارج.

على هذا تعاهد القائد المخلص مع رفاقه الثقات في جيش السلطنة. فكان لهم أخيراً ما أرادوا من خلع السلطان. وعلى الرغم من مطالبة العامة بقتله على مشهد منهم، فإن القائد الجديد آثر ألا يستفتح العهد الجديد بسفك الدماء، واكتفى بحبسه في زنزانة وضيعة. وعلى أي حال، ما كان السلطان السابق الهرم ليحتمل طويلاً ما صار إليه من الذل والمهانة وسوء الحال، فلم يطل الوقت حتى قضى في سجنه الموحش، وإن تهامس البعض أنه قد مات مسموماً. ودُفن في قبر مجهول بليل، كيلا يقدم بعض الموتورين على نبش قبره، وهم كثيرون.

كان هذا قبل عشرين سنة. ولم يكن ذلك القائد المخلّص غير السلطان القائم ركن الدين عبدالله بن سعد الذي يعود غداً إلى حاضرة السلطنة مظفراً من غزوته الأخيرة، وكان قد أنجز وعوده الأولى عبر أعوام حكمه بتحرير أراضي الدولة المغتصبة، ثم تحوّل من جهاد الدفع إلى جهاد الطلب، ومن مطلب التحرير إلى مطلب التوسّع في أراضي الدول المجاورة، ومن اتقاء شرور الأعداء ببذل الإتاوات إلى تحصيلها منهم اتقاء لصولته وعقوبته.

أفلا يستحق قائد فذ من هذا الطراز، صنع لشعبه ما يشبه المعجزات، فنصرهم وانتصر بهم بعد عهد من الهزائم، وأعزهم واعتز بهم بعد ذلّة وهوان، ألا يستحق أن يحبوه أكثر من حبهم لأبنائهم وآبائهم؟ ألا يستحق أن يبجلوه ويعظموه ويفدوه بأرواحهم إذا اقتضى الأمر؟!

فما الذي حدث حتى تغيّرت القلوب عليه، فلم تعد انتصاراته العسكرية تشفع له عند العامة الذين لا يرون فيه الآن إلا طاغية آخر يجثم على صدورهم ويكتم أنفاسهم، حتى إن الشجاع منهم أو المتهوّر لا يبوح برأيه إلا همساً، بعد أن يتلفت في كل اتجاه، خشية أن يسمعه أحد العيون المنبثين في كل مكان. فقد انقسمت العامة بين رقيب ومُراقَب. ولم يعد أحدهم يأمن أن يكون من أهل بيته عين عليه.

نعم، غداً يخرج الناس عن بكرة أبيهم لاستقبال السلطان، وسيلوّحون له بالمناديل وأغصان الشجر، وسيهتفون له ملء حناجرهم. ويمضي السلطان المظفر إلى قصره مطمئناً أن شعبه يحبّه ويعظّمه، على الرغم من دعاوى المرجفين ومكر الماكرين وكيد

الموتورين من بقايا العهد السابق وممن باعوا أرواحهم لأعداء الملّة والدين. ولعله لا يعلم أو أنه لا يريد أن يعلم أن هؤلاء الذين خرجوا لاستقباله وتحيته، قد أخرجهم الخوف مرغمين، وأن العيون تراقب وتيرة حماسهم في التلويح والهتاف وتعابير البهجة. فالبعرة تدل على البعير وعمل الجوارح ينبئ عن الضمير! والضمير مكان التدبير! والتدبير حقه الاستئصال والتدمير!

* * *

في دار النخاسة التي يمتلكها أبو حسّان، أكبر نخّاسي المدينة، كانت قمر، أجمل بضاعة عنده وأغلاها، تنهي ضربها على العود في صوت من شعر الغزل صدحت به في حضرة معلم الموسيقى والغناء، حين بدا أنه يكاد أن يشق قميصه نشوةً وطرباً. وعلى غير عادته في اصطناع الجدّ والتحفظ المقصود في إبداء الإعجاب مع تلاميذه، حتى مع الإتقان والتجلّي، كي لا يأخذهم الغرور فيدلون بأنفسهم، فإنه لم يملك نفسه هذه المرّة، فقفز من مكانه صائحاً:

– الله الله. هذا هو السحر الحلال. لقد علمت عشرات المغنين والمغنيات، فما وجدت جارية أحسن منك صوتاً وضرباً على العود. أولئك كنت أعلمهم فيتعلمون، أما أنت يا قمر، فليس لي من فضل عليك إلا أني استخرجت من نفسك ما ركبه الله فيها. وما أراني أستطيع أن أزيد في تدريبك بعد اليوم. بل لا أراني ألحق بك ولو اجتهدت. ولست أحسدك، ولكني أحسد الرجل الذي سيفوز بك.

لم يستخفها ثناؤه، وهي التي لم تستطع حتى الآن أن تتقمّص حال الجارية المملوكة، فبقيت ناقمة ساخطة:

– بل قل غيري من جواريكم كن يتعلمن الغناء ويجتهدن في إتقانه لتعلو به قيمتهن، فيكون المالك على قدر القيمة. أما أنا فأغني لنفسي، لأني أحب الغناء.

كان قد ألف منها مثل هذه المواقف على غرابتها غير المسبوقة عنده. فالجارية المسترقّة الفتية الجميلة، التي تُعَدّ للحظوة عند الرجل الشريف لا تلبث في العادة أن تألف وضعها وصفتها. فقد تتقدم عند صاحبها على سائر نسائه الحرائر، ويكون لها من السلطان في بيته ما لا يكون لهن. فتملكه وهي المملوكة. بل ربما أوقف على خدمتها بعض عبيده، فلا يضرها أن يقال: جارية. أما قمر هذه فقد حار فيها لبّه. من أين يأتيها هذا التعالي والاعتداد بالنفس والتبرّم بما يبذل لها من الإطراء. أليست أنثى، ومن طبع الإناث الحرائر والجواري سواء، أن يغرهن الثناء والغزل؟ وهذه بعد قد جمع الله لها كل ما يأسر القلوب والألباب ويفتن الأنظار: جمال خارق لا يكافئه إلا ذكاؤها وعقلها ومواهبها وتفوقها في العلوم والآداب والفنون التي تعهدها بها أبو حسّان النخاس من خلال نخبة من أفضل المعلمين في كل فن، حتى صارت تحفة من تحف الزمان. ومع ذلك فلا تبدو مهتمة أبداً باستعمال أي من عدة الفتنة والجاذبية التي تملكها. فلا تراها تخضع بالقول وترقق صوتها، ولا تتكلف فتور العين ونعاس الطرف لتستمتع برؤية محدّثها وقد طار عقله وارتعشت جوارحه وتهدج صوته وارتجفت ساقاه وندب حظه الذي لا يتيح له امتلاك الدرة اليتيمة!

ربما لأنها تمتلك كل تلك المواهب، فهي أكثر اعتداداً بنفسها من أن تستعمل شيئاً منها لاصطياد القلوب وإخضاع النفوس.

والثناء مصروف لها على كل حال دون أن تكلف نفسها شيئاً من الجهد المضاف.

كان معلم الموسيقى قد ألف ذلك كله. فلم يدهشه ردها المتعالي على ثنائه. ومع ذلك أحب أن يتابع الحوار معها، ليختلس وقتاً آخر في حضرة جمال آسر وجاذبية موجعة لمن يعلم مثله أنه لا يستطيع أن ينال منها غير السماع والنظر.

- كيف لا يسرّك يا قمر أن اجتمع لك ما يعلو بقيمتك فوق سائر الجواري، فيكون المالك على قدر القيمة! وهذا هو مآلك على أي حال. وأن تكوني عند الرجل الشريف القدر، خير من أن تكوني لمن هو دونه. وهل ثمّ خيار آخر ترتجينه؟

أرسلت إليه نظرة استهزاء وتعجب من سؤال تراه ساذجاً. إذ إن حيرتها فيه وفي أمثاله لا تقل عن حيرته فيها. وهذه المرّة أجابت بصوت خفيض ولكنه حازم:

- وما أدراك أن الرجل الشريف في ميزانكم هو الوضيع في ميزاني!! وأن السيد في مذهبكم عبد في مذهبي؟!

- مذهبكم! أسيادكم؟ ميزانكم! كأنك تجهلين المكان الذي أنت فيه.

اكتسى وجهها هنا بشيء من الأسى، وتحدثت كأنها تخاطب نفسها.

- أعلم ما أنا فيه.

ثم تابعت بلهجة أشد صرامة وتحدياً متوجهة إليه:

- دار نخاس دنيء ساقط الهمّة والمروءة.

- على رسلك يا قمر. إنه أشهر من يعمل في هذه المهنة.

هنا غلبت عليها السخرية:

- وما أشرفها من مهنة! وما أعظمها من شهرة! على أن إبليس أشهر منه وملايين الخلق يستعيذون بالله منه في كل يوم.

وهنا صدق الاعتقاد الشعبي بأن ذكر الشيطان يستجلبه. فإذ همّ معلم الموسيقى أن يتابع الحوار الذي يعلم أنه لا جدوى منه إلا إطالة النظر إلى الحسن الذي يزداد فتنة مع الغضب، اندفع أبو حسان النخاس داخلاً تتبعه جارية متوسطة السن ما يزال فيها أثر واضح من جمال قديم، وتدل ثيابها وزينتها المائزة على أنها قهرمانة خبيرة. أشار أبو حسان فوراً للمعلم بالخروج، بينما تقدمت القهرمانة إلى قمر ترمقها وتتفحصها من الأعلى إلى الأسفل بنظرات عميقة فاحصة. أما أبو حسان فمكث غير بعيد يراقب بشيء من التوتر. وما هي حتى استدارت القهرمانة نحوه وأرسلت إليه نظرة غامضة، وتعمّدت أن تحافظ على جمود ملامحها كيلا تنبئ عن أي معنى، وبذلك تتمتع لحظة أخرى بتعذيب الرجل الذي يترقب على نار حكمها الأخير. وما لبثت أخيراً أن انبسط وجهها مع ابتسامة عريضة، وهزت رأسها هزة الرضا والقبول! أطلق أبو حسان نَفَساً محبوساً وارتخت ملامحه مرة واحدة، بينما تسللت القهرمانة خارجةً بمشية متعالية تنضح بالكبرياء والثقة. أما أبو حسان، فقد حان الآن الوقت ليملأ صدره بنَفَس آخر عميق وقد بسط ذراعيه على جانبيه ليوسع لصدره وكرشه البارز. أما قمر فكانت تراقب طوال الوقت ما يجري ويشتغل عقلها على تأويله واستنطاق إشاراته.

وما كان ذكاؤها الحاد ليغفل المعنى الأرجح، ولكن مشاعر الخوف والرفض ألزمتها مدافعة عقلها وفطنتها بتأويلات أخرى محتملة أقل سوءاً. وعلى أي حال فإن أبا حسان الذي ينتفخ سعادة وبهجة، لن يتركها لحظة أخرى تكابد من الظنون المتدافعة. ولكنه على عادة الناس في إلقاء الخبر العظيم، خيراً كان أم شراً، يحب أن يقدّم له بصمت وإشارات مشوّقة تزيد من حيرة السامع وتحفّز اهتمامه وتلهّفه المؤلم، وتلزم الترجّي والمناشدة والإلحاح. على أن قمر ليس من طبعها أن تظهر ضعفاً مما يكون مع الرجاء والمناشدة. وها هو أبو حسان يرفع ذراعيه أخيراً مع صيحة ابتهاج مُنْكرة:

- يا وجه السعد...

أغرته العبارة الأولى بأن يردفها بعبارة توازنها وتنتهي بالقافية نفسها. فتلجلج لحظة يبحث عنها فلا تطاوعه، حتى بدا أنه قد أفسد التدفق الحماسيّ الذي ابتغاه، فتعجّل بعبارات ركيكة أملاها طلب القافية على عجل من رجل يفتقر إلى الفصاحة:

- ويا روض الورد وطعم الشهد... و... و... واسطة العقد...

تدخلت فوراً لتريحه من شَرَك اللغة الذي أوقع نفسه فيه، ولتريح نفسها من سخفه وغثاثته:

- حسبك، حسبك أيها الرجل... ألا...

قاطعها متدفقاً هذه المرّة:

- لقد توسمت فيك الخير من أول يوم. قلت: لعل الله أن يجعل لي بها خيراً كبيراً. فكان كما قلت. من عمل في هذه التجارة

قدر ما عملت، صار عنده فراسة يحسن بها تقدير الدرّة الثمينة حين يعاينها.

لم يبقَ عندها الآن ما تدفع به أسوأ توقعاتها ومخاوفها. فشعرت أنها تهوى في جب عميق، يلاحقها صوت أبي حسّان الذي انقلبت لهجته إلى ما يشبه النفاق والرجاء.

- نشدتك الله أن تعدلي يا قمر... ألم أتعهدْك بخير الطعام والشراب والثياب وبأفضل المعلمين في فنون الضرب والغناء والرقص والأدب والشعر والنحو؛ بل زدتك على ذلك السِّيَر والأخبار والنوادر والتاريخ، ثم الفقه والحديث والتفسير مما لا تتقن زوجي وبناتي منه شيئاً... حتى صرت أعجوبة الزمان وبلغت أخبارك القاصي والداني... لقد فعلت ذلك كله من أجلك... أليس كذلك؟

عثرت على صوتها التائه بعد بحث قصير:

- بل فعلته من أجلك أنت.

- من أجلي نعم... ومن أجلك. لقد شاء الله أن يكون حظي منك بحظك مني... بل أعلم الآن أنك تصيبين أضعاف ما أصيب.

تنبّهت ملامحها، وانتشلت نفسها من غياهب الجب. فالآن لحظة الحقيقة.

- من المشتري؟

فرك يديه بثقة وأحب أن يمهّد للنبأ العظيم الذي يمكن أن ينوء بروعته عقلها وجوارحها.

- خمّني.

- دعك من ألاعيب الصبيان هذه.

- نشدتك الله أن تجاريني هذه المرة... فلن يكون بعدها مرة أخرى.

فليكن... وقد أدركت أن اللعبة تقتضي التدرج في السلم.. فقالت وقد أنبأها الموقف أن المقصود أكبر من الاقتراح الأول:

- تاجر كبير؟

ردّ بسرعة هو يعلو بيده فوق رأسه:

- فوق ذلك.

رفعت التوقع إلى شهبندر التجار، ثم إلى أحد القضاة، ثم إلى قائد الشرطة، فأمير الجند، وفي كل مرة ينفي أبو حسان بنبرة استنكار مشوبة بالازدراء، حتى إذا بلغت منصب الوزير لم تعد مشاركتها على سبيل المجاراة في لعبة صبيانية. وإذ نفى أبو حسّان هذا أيضاً ويده تزداد ارتفاعاً فوق رأسه، كان قد نجح في استجماع حواسها جميعاً:

- ليس فوق الوزير إلا حاجب السلطان أيها الأحمق الممرور!

تكلف الصمت والسكون هذه المرة، ومحا أي تعبير واضح في ملامح وجهه، وهي ترمقه محتارة وقد غلبت عليها لهفة الترقب أخيراً. وفجأة صاح من جديد وقد استرجع حماسه وارتفع به شأواً جديداً:

- بل فوق الحاجب نفسه!

هنا كان قد فرغ صبرها، فصاحت به:

- أيها الأحمق الممرور الموسوس... وهل فوق الحاجب أحد؟

أرسل إليها نظرة غريبة مع طيف ابتسامة غامضة.

- حقاً! ليس فوق الحاجب أحد؟

قالها بنبرة من يدعو سامعه أخيراً إلى استيعاب ما كان خارج التصور والحسبان والمفاضلة. بدت غائبة عن نفسها وهي تردد بصوت مرتجف خفيض:

- لا، لا، لا...

بدا صوته قادماً من مكان بعيد.

- نعم، نعم، نعم. السلطان نفسه، صاحب الأمر والنهي والحل والعقد. لم تتوقعي ذلك أبداً... هل تَعِين الآن لماذا أقبلت عليك بكل ذلك التبجيل و... والكلام عن الحظ العظيم الذي سيق إلينا؟

ثم تابع ساخراً:

- هه! شهبندر التجار! القاضي! قائد الشرطة! وهل يكفي مثل هؤلاء لأتذلّل لك فأناشدك الله أن تذكري ما بذلته في العناية بك! أم يستحق هؤلاء أن أمهّد للخبر العظيم تمهيداً لأمتع نفسي بوقعه عليك أخيراً، ولأجنبك صدمة الفجاءة التي يمكن أن تصرع الرجل القوي وإن كانت فوزاً كبيراً. ولكن لا ألومك... ما كان لك أن تتوقعي هذا. وكيف...

قاطعته وقد تمكنت من استرجاع قدر من قوة نفسها:

- أما الصدمة فقد وقعت على كل حال. ولكنها ليست صدمة الفوز الكبير. إنما هي صدمة المصيبة العظمى والطامة الكبرى... هذه أسوأ ساعة في عمري منذ رأيت جنود السلطان يقتلون أهلي ثم يسوقونني سبيّة وأنا بعد لم أتجاوز العاشرة. فهل كنت تتوقع أن أطير فرحاً بأني سأصير إلى الطاغية المستبدّ الذي سلبني أهلي وحريتي!

صار عليه هو الآن أن يواجه صدمة لم يتوقعها أبداً. دار على نفسه دورة وهو يضرب كفّاً بكف، ويحدِّث نفسه:

- هل أصدق سمعي أم أكذبه؟! هذا أمر إمّا أن يكون سعادة الأبد، أو شقاء الأبد. لا أرى هذه الحمقاء ستوردني غير المهالك.

ثم توجه إليها مباشرة وتابع بنبرة قاطعة حازمة:

- أنصتي أيتها الحمقاء البلهاء الخرقاء الورهاء، إلى آخر تلك الأوصاف التي صنعت لوصف أمثالك. ولقد يخالط الذكاء بعض الحمق المهلك. هل تعتقدين أن لك الخيرة من أمرك. بل هل أملك أنا الخيرة من أمري مع السلطان! استيقظي إن كنت نائمة... إنْ كان عندك من الأسباب ما يصرفك عن صدمة الفرح إلى صدمة المصيبة، فاذكري أن السلطان يملكنا جميعاً ويملك ما نقف عليه.

- تعني أننا جميعاً عبيد السلطان، يستوي في ذلك الحر والعبد. هل ينبغي أن أجد في هذا عزاءً؟! ثم إني ظننت أن الذي يملك رقابنا جميعاً هو الله. هكذا علمني من أوقفتهم على تعليمي.

- والله مَلَّكَ السلطان رقابنا. وإن كان هذا يواسيك فإن منا نحن رعايا السلطان الأحرار من ينقم عليه أكثر من نقمتك، يقولون طاغية مستبد، كمم الأفواه وبثّ العيون وصادر الأملاك وأرهقنا بالمكوس، فمن خالف واشتكى كان نصيبه الحبس والجلد والقتل. وحتى غزواته وانتصاراته لم تعد تشفع له عندهم. يقولون: لِمَ تؤخذ أموالنا ويُقتَل أبناؤنا في حروب لم يعد لها ضرورة ولا طائل منها إلا أن تدوَّن في سجل أمجاده. أليس من الأجدى أن تُنفَق الأموال في معائش الناس وحاجاتهم؟ بل يقولون: ما قَهَر الدول الأخرى إلا بقدر ما قهرنا. بل هو علينا أشد وأنكى. و... نعم. من هؤلاء من ينقم على السلطان لثأر شخصي: أخذ ماله أو ضرب ظهره أو قتل عزيزاً له.

تلجلج لحظة ثم تابع مستدركاً بلهجة اعتذارية:

- بالطبع، ليس هذا كلامي ولا رأيي... إنما هو كلام المرجفين المارقين... أهل المعاصي والشرور والشُطّار والزُعّار...

قاطعته لتكمل عنه بنبرة مشوبة بالسخرية:

- والخائنين الذين باعوا أرواحهم للعدو لقاء الدراهم... ولا تنسَ الطامعين بالحكم، وبقايا العهد السابق الذين خسروا إقطاعاتهم ومناصبهم الرفيعة!

تجاهل نبرة السخرية في صوتها:

- هو ذاك. قد عرفتِ فالزمي. والله لو وزن كلامي بالذهب ما أدى حقه.

على الرغم من أن دفاعه لم يبلغ من مشاعرها شيئاً، إلا أنها دارت دهشتها من قوة حجته ومنطقه، على غير ما كانت تظن فيه.

ولقد تخرج الحاجة الملحة والغاية المتسلطة من الإنسان ما لم يكن يعرف نفسه أنه قادر عليه.

وحين ظن أنه قد أفحمها وأقنعها بما يدفع عنها المهالك، قدّر أنها الآن متهيئة لسماع النصائح التي تجلب لها المنافع:

– إذا صرت عند السلطان أيّده الله فلا تتركي فناً مما علمناك إيّاه إلا أخرجته. أعني هنا فنون الغزل والإمتاع والمؤانسة وامتلاك القلوب والجوارح... الغنج... كل الرجال يحبون الغنج، ولكن لا تسرفي فيه فينقلب إلى ضدّه. والرجال يحبّون السماع، فاختاري لسماعهم أجمل الأصوات، وانتقي من الشعر ما يريح النفوس ويطيب الخواطر، ولا تعمدي إلى ما يثير اللواعج والهواجس والمواجع، ولا ما يؤدي إلى التطيّر فيفسد المجلس وتنقلب الأمزجة... والرجال يحبّون الدلال، ولكن إياك أن تبالغي فيه فينقلب تمنّعاً وغروراً. فثمة فرق كبير بين أن تتدلل الجارية وبين أن تدلّ بنفسها على صاحبها. فكيف إذا كان السلطان! وإياك وارتفاع الصوت في غير الغناء... وإذا جلست أول الأمر فأطرقي ولا ترفعي رأسك إلا بطلب السلطان، فإذا رفعت رأسك فاجعلي في نظرك فتوراً ونعاساً. فإن القلوب تفتنها العيون التي في طرفها فتور.

حين ظنت أنه فرغ من الوصايا النفيسة التي لم تزدها إلا نفوراً، استدار متابعاً:

– آه، نعم. احفظي هذه... إذا قدمت للسلطان شراباً فاحتسي من كأسه حسوة صغيرة قبل أن تناوليه الكأس. تلك هي العادة المتبعة. فإنه لا يشرب من كأس حتى يحتسي الساقي منها قليلاً.

سألت وهي تعرف الجواب:

- ولِمَ؟

- يفعل ذلك تحوّطاً.

- آه... خشية أن يكون بعضهم قد وضع له السمّ في الشراب!

- هو ذاك.

- فإذا مات الساقي اكتشف السلطان المؤامرة فنجا. ما أعظم هذا! كل هذه الثقة من فرط ذلك العدل.

تجاهل نبرة السخرية وتابع وهو يدرك أن كلامه التالي سيثير عندها من السخرية أكثر مما أثاره كلامه السابق:

- دعي عنك هذا. ولكن تنبهي هنا جيداً. إذ يجب أن يكون ميزانك دقيقاً كميزان الذهب والماس. فلا يصح أن تحتسي من كأسه أكثر من اللازم... ولكن...

قاطعته وأكملت عنه بمزيد من السخرية:

- ولكن آخذ منه ما يكفي لقتلي إذا كان الشراب مسموماً، وأقل مما يمتعني ويشفي لي غليلاً إذا كان الشراب سليماً! تالله إن هذا يحتاج إلى مهارة فائقة. فللساقي حق الموت بشراب السلطان، ولكن ليس له حق التلذذ به.

- فليكن. نعم، هو ما قلتِ، سواء أسخرتِ أم لم تسخري. هكذا هي الحياة. المغارم على قدر المغانم. ومن كان في حظوة السلطان صار على الخيار من أمره، فإما النعيم المقيم، وإما العذاب الأليم.

– ما زدتَ على أن جعلته ربّاً.

– معاذ الله أن أشرك بالله أحداً من خلقه. ولكن، لا أحسبك تجهلين معنى الرب في أصل اللغة... فنقول: ربّ البيت، نعني سيّده ومالكه ومدبّره. وبهذا المعنى، فنعم... السلطان ربّ رعيته. والآن أنصتي إلى آخر الوصايا النفيسة التي ستدركين غداً قيمتها... نعم، إذا تبسّط السلطان معك فقال من شعره أو شعر غيره، فأظهري له أن هذا ما طلبه الشعراء ولم يدركوه. وإذا كان في مسألةٍ عظيمة أو عاد من حرب ثم دخل عليك، فليكن همك أن تنسيه ما كان فيه من المشقة، ولا تسأليه في الأمر إلا أن تعظمي قدرته وقوته... وإذا قتل أحداً فكأنك لم تسمعي بذلك. فإن السلطان إذا قتل ظلّ متفكّراً في أمر الشقي الذي سلّط عليه غضبه. فقد يكون الرجل أحد وزرائه أو ندمائه، بدر منه خطأ استوجب القتل. فإذا سكن الغضب عن السلطان ربما راجع نفسه فيه وذكر منه مناقبه ومآثره القديمة، فصار قريباً من الندم. فكان عليك أن تنسيه همّه وغمّه. والآن، هل وعيت هذه الوصايا الجليلة؟

– وعيت، وعيت. لا سيما الأخيرة منها: أن أنسيه همّه في أنه قتل رجلاً كان عزيزاً عليه وأصرفه عن الندم. وأي هم أكبر من هذا؟

– تعلمين أن السلطان يعود غداً بعد أن أمكنه الله من عدوه، وزوج السلطان هي من اشتراكِ لتهبك له في المناسبة العظيمة بعد أن ذكروا لها أخبار جمالك وما تحسنين من المعارف والفنون. فإياك أن تخيّبي ظنها ثم ظني. فهذا أمر جده جد، وهزله جدّ. والعاقبة

معلومة. ولو أنها تقف عندك لما شغلت نفسي بأمرك بعد أن تخرجي من عندي، لكنها عنقي أيضاً...

- ما أجمل هذا! الرجل الذي ملك رقبتي، صارت رقبته بيدي! والله إنك لتغريني بإغضاب السلطان إن كان فيه هلاكُك. أما هلاكي فقد علم الله أني لست أَحْرَصُ على حياتي من حرصي على حياتك!

همّ أن يعلّق غاضباً على كلامها، لولا دخول المؤدب علي بن الحسن، معلم الأدب والشعر. أرسل إليه أبو حسان نظرة عجلى محافظاً على جدّه وعبوسه:

- هذا آخر درس تعلمها إياه، فإنها خارجةٌ غداً من عندي، فذكّرها بأجمل أبيات قالتها العرب في المدح والغزل، فإنها ستكون أحوج ما تكون إلى هذا وذاك.

وإذ خرج أبو حسّان، تبادل عليّ وقمر نظرة عميقة تنبئ أن ما بينهما أكثر من العلاقة بين المؤدّب والتلميذ. كان شاباً حاد الذكاء، واسع الاطلاع. لم يكن غريباً أن يقع أحدهما في غرام الآخر بعد عامين من المخالطة. فقد وجد كل منهما في الآخر شبيهه في الفطنة والذكاء وسرعة البديهة وقوة الشخصية والجرأة، وكره عميق للظلم، لا يكافئه إلا التعاطف مع الضعفاء والمقهورين.

وما كان لمثله أن يكتفي بأضعف الإيمان فينكر بقلبه فقط. أما الإنكار باللسان فله عبرة فيمن جربوه، فلم يبلغوا به إلا مهالكهم، وإن ترفقوا في القول وذكّروا بأيام الله وجنحوا إلى التعميم. فهم دعاة فتنة، والفتنة أكبر من القتل! وقد علمه النظر في التاريخ أن

الطغاة لا يرجعون ولا يثوبون إلى الحق لمجرد الموعظة الحسنة أو المناشدة والتظلم والرجاء، حتى لو طاف بهم طائف من الندم وصحوة الضمير. إن لم يمنعهم من ذلك العزة بالإثم وغواية القوة وعظم المغانم التي حازوها، صرفهم انعدام المخرج الآمن. إذ يعلمون كل العلم أنهم إذا تخلوا عن شوكتهم، فلن يشفع لهم الندم والتوبة عند الموتورين، وسيكون حسابهم عسيراً. ولذلك شاع القول: السلطان إما في القصر، وإما في القبر! فليكن إذن. لا بد من الثورة مهما تكن النتائج والمصائر. هذا ما عزم عليه المعلم علي بن الحسن منذ سنين. وفي البداية كانت فكرة وقراراً وعزيمة وخطة. ثم بعد أن تقدم أشواطاً في الدعوة السرية واستقطاب المريدين المتحمسين ورأى طاعتهم المطلقة له، بدأ يشعر أنه مقدّر لهذا العمل. فزاده ذلك ثقةً وإصراراً. وفي هذه الأثناء كانت علاقته بالجارية قمر تتنامى إلى مستوى الحب الجارف. ولكن، كان كلاهما من قوة الشخصية بحيث تمكنا من إخفائها. وطغى عليه الشعور أن هذه ليست شريكة في مشاعر العشق إلا بقدر ما أنها شريكته في غايته. فكان أن أفشى لها بخطته وتدبيره. ووجد في فطنتها وحسن تدبيرها عوناً له في التدبير. فلم يجد حرجاً في أن يستشيرها في الكثير من الأمور. لم يصرفه عن ذلك أنها امرأة، وأنها سوى ذلك جارية. واستدعى من التاريخ عدداً من الجواري اللواتي كان لهن حظ كبير في التدبير وخطط السياسة والحروب مع الخلفاء والسلاطين الذين كنّ حظاياهم أو أمهاتهم. ولكنه لم يكن متهيّئاً في هذا اليوم المشؤوم للخبر الذي نزل عليه كالصاعقة، وإن كان يدرك سلفاً أن هذا يمكن أن يحدث في أي وقت. تساءل بصوت مخنوق:

- غداً!

اكتفت بالإطراق. ولم يكن يعلم حتى اللحظة أن الصدمة التي دهمته بخبر بيع قمر ستكون أعظم أضعافاً حين يعلم بعد قليل شخص المالك. دارى رغبته في الصراخ وهو يطلق اللعنات. وحين ذكرته أن اللعنات لن تجدي شيئاً قال:

- إذن تفرّين معي.

- متى والموعد هو الغد؟ وكيف مع كل هؤلاء المعاونين والمعاونات والحرس الذين يستأجرهم أبو حسّان؟ وما هي حتى يبعث لي بجيش من المزينات وأحمال الزينة التي تليق بالمناسبة العظيمة والجائزة الأعظم!

تنبهت ملامحه ونظر إليها مستفسراً. أدركت أنه حتى الآن لم يعلم من الخبر إلا أهونه:

- السلطان! سأُحمل غداً إلى قصر السلطان... خصمك الأول وخصمي وخصم الناس... لأكون سبباً في متعته ولذته وراحته بين القتل والقتل والنفير والنفير!

قالت العبارات الأخيرة إمعاناً في التهويل والتحريض واستفزاز الحمية، بينما كان هو يغالب تأثير الصدمة التي رجّت الأرض تحت ساقيه، وأشعلت عقله وجوارحه. أطلق نفثة حرّى وآثر الجلوس الآن ليستوعب الموقف. ومرت لحظات من الصمت الثقيل قبل أن يتحدث من جديد كمن يخاطب نفسه:

- السلطان؟! الطاغية المجرم! ولِمَ أنت من دون الجواري؟!

- لِمَ أنا من دون الجواري؟ لولا أن بغضي له وحبي لك يطغيان على كل شيء، لذكرتك بما يميّزني عن سائر الجواري!

قالت ذلك وهي تشير إلى نفسها... ثم تابعت:

- ولكن، ألا يمكن أن يوجه هذا السؤال لك؟ لِمَ أنا دون غيري؟

أرسل إليها نظرة حائرة غائمة:

- ولكني رأيت منك مع طول المخالطة ما لم يره؟

- وما حاجته إلى العقل والفطنة وصفات النفس. إنما يطلب هذا؟

وأشارت إلى جسمها وقد امتزجت في نفسها مشاعر الثقة بالذات والرغبة في استفزازه وتحريضه ليبادر إلى فعل شيء يخرجهما من هذه المصيبة. ثم استدركت:

- على أن زوجه هي التي ابتاعتني له، بعد السؤال والفحص والمقارنة والمفاضلة.

نفض رأسه وأرسل نفثة أخرى.

- هل كنت في حاجة إلى أسباب جديدة لكي أنقم عليه وأدبّر للخروج عليه، حتى يسلبني المرأة التي أحب؟ فليكن. يمكن أن تتأخر الحرب الكبيرة حتى نستكمل عدتها وآلتها. وتتقدم الآن الحرب التي تخصّني وحدي. سأجد طريقة. سأستعين بأصحابي وبعض أتباعي، فنبغت عُمّال أبي حسان بقوة السلاح في جوف الليل، ونخفي وجوهنا فلا يميّزنا أحد!

- وتجازف بنفسك وأتباعك الذين ادخرتهم للمهمة العظيمة من أجل حربك الخاصة!

- إذا كان عندك خطة أفضل، فاقترحي...

صمتت لحظات، ثم قالت بلهجة قاطعة:

- فليكن إذن... افعل ما تستطيع فعله، استعِن بأصحابك أو حتى ببعض الشُطّار والعيارين... ولكن يجب أن أفر من هنا قبل وقوع الواقعة... الموت أهون عندي... وإلا اغتنمت وجودي مع ذلك الوحش فقتلته ثم قتلت نفسي.

إذ همّ أن ينتصب قائماً تغيرت ملامح وجهه فجأةً، وبدا أن خاطراً غريباً غشيه مرغماً فزاغ بصره، واهتزت جوارحه. نظرت إليه حائرة مستفسرة وقد بدا لها أنه يغالب نفسه على فكرة متسلطة لا يملك دفعها. فقالت تحثه وتستعجله:

- ماذا؟ ما بك؟ قل...

تمنى أن تمهله لحظة أخرى حتى يتكيّف هو أولاً مع الفكرة حين تستكمل الغوص الموجع في عالمه.

وأخيراً هتف بصوت خفيض تائه:

- كيف قلتِ؟

- أسأل عما ألَمّ بك وشغل تفكيرك.

- لا... ليس هذا... تغتنمين فرصة وجودك معه! أليس هذا ما قلتِ؟

اتسعت عيناها وهي تتفحصه:

- ماذا؟ لا أظنك تعني أن أقتله ولو قتلت معه نفسي!

- تمهّلي... تمهّلي... كيف يمكن أن تتفهمي ما أهم بقوله؟

- لن تعرف حتى تفصح!

تريّث لحظة ليستدعي كل قدراته على التأثير والإقناع، وهي التي مكّنته حتى الآن من تنظيم جيش سريّ محكم البناء، شديد التفاني والولاء، في انتظار بدء الثورة والعصيان.

- أنا نفسي لا أصدق أني سأقول هذا...

تقدم نحوها وبدأ الآن يتحدث بنبرة قوية قاطعة:

- أنصتي يا قمر. إني سألقي عليك وعلى نفسي قولاً ثقيلاً، يكاد أن يتصدع منه قلبي وينهدّ الفؤاد هدّاً. ولكني أحمل أمانةً كبرى نذرت لها حياتي... تحرير البلاد والعباد من هذا الكابوس الثقيل الطويل... هل تتخيلين كم أنفقت حتى اليوم من الوقت والجهد وأنا أعْجِم عيدان الرجال فأختار لدعوتنا أشدها عوداً وأرجحها عقلاً، ثم أرتب الرجال على مراتبهم من عرفاء ونقباء... ولعمري إن تدبير الرجال أشد من تحريك الجبال. فهذا تسلّط عليه الخوف حتى أسلم نفسه للأيام تقلّبُه كيف تشاء. وذاك رجل لا ينقصه شيء من حمية أو شجاعة، ولكن فيه نَزَقاً وتعجّلاً وتهوّراً قد يذهب بالتدبير... ورجل آخر لا ينقصه شيء من الحكمة والتعقل، إلا أنه يبالغ في الحذر والشك مبالغةً تقعده وتقعدنا. وثمة رجل حالم يرى النصر على مرمى قصيدة من قصائد الحماس، وآخر غلب عليه الحقد

حتى أعمى بصيرته فكأنه يريد أن يوغل في الدم ويأخذ الصالح بالطالح. أنواع من الرجال لا تحصى. وعليّ أنا أن أزن الأمور بموازينها، إذ لا فسحة في هذا الأمر الجلل للخطأ الكبير.

أخذ نفساً عميقاً وتهيّأ لاستئناف المقدمة التي يرجو أن تعدّ صاحبته لقبول خطته الجديدة على ما فيها ثقل وتضحية ومرارة وغرابة.

- تعلمين أني أحبك أشد الحب. ولو لم يكن الأمر الذي تعلمين لقاتلت عنك حتى الموت. ولكني تعلمت من كتب التاريخ والسِّيَر والأخبار أن ثمة وقتاً تُختبر فيه النفوس الكبيرة والهمم العالية والغايات البعيدة. فيكون عليها أن تتحمل عواقب خياراتها الصعبة التي لا تكون بين منفعة خالصة وضرر خالص، أو بين خير مطلق وشر مطلق، وإنما بين الضرر الأقل والضرر الأعظم، أو بين ضرر خاص ومنفعة عامة. ولطالما تساءلت في نفسي كيف وفيمَ يكون اختباري. تخيلت أنواع المواقف كلها من ترهيب أو ترغيب. ورضت نفسي على مقاومتها جميعاً. ولكني لم يخطر لي أبداً أن اختباري سيكون أشد منها جميعاً وأني سأواجهه في أول الطريق لا في وسطه ولا في آخره. الآن... معك يا قمر.

تفحّصها ليرى وقع الكلام عليها، قبل أن يلقي عليها ما وصفه بالقول الثقيل الذي يكاد أن يتصدع منه قلبه وينهدّ الفؤاد هدّاً. ولكنها سبقته هذه المرة:

- أظن أني أدركت مرادك. وإنه لقول ثقيل كما قلت، ولكن إذا كان قلبك أنت يكاد أن يتصدع منه وينهد فؤادك هدّاً، فما أقول

في قلبي وأنا من تريد أن تحمّله هذه المهمة القاتلة. تريدني أن أذهب إلى السلطان، فأتقرّب إليه حتى أحظى عنده. ثم أكون عينك على خطط القصر حين تبدأ بالعصيان والثورة. فأوافيك بالأخبار لتكون لك المبادرة والمباغتة والغلبة. أليس هذا ما تريد التوصل إليه؟ أهو اختبارك أم اختباري؟

- اختبارنا معاً. ألا ترين؟ لقد قضى الله أن يكون مصيرنا واحداً، فالتقينا على أمر قد قُدِر. نعم، لو أطعت قلبي وهواي ورغبتي لما اقترحت عليك هذا ولو أعطيت بك الدنيا كلها. ولكن أين أذهب بعد ذلك بالأمانة التي أشعر هنا في صدري أنها أُنيطت بي. كيف أرى نفسي، بل كيف يمكن أن تنظري أنت إليّ؟ ابتعت هوى نفسي بدماء العباد ومصالحهم، فكلما أهرق السلطان دماً نظرت إلى يديّ فرأيت الدماء عليها. أخشى عندها أن ينصرف قلبي عنك، وقلبك عني. هل تدركين ما أعني؟

تُرى لو لم تكن جارية لا يغار عليها الرجال غيرتهم على الحرة، فتُباع وتُشترى وتُهدى، هل كان يرضى لها بهذا المصير حتى بدعوى تلك الغايات العظيمة! أليس هذا هو السبب الذي يهون معه على زوج السلطان أن تبتاعها له؟ هل كانت لتخطب له امرأة حرة شريفة النَّسَب لتكون له زوجة أخرى، ولتكون لها ضَرّة؟

همّت أن توجه إليه السؤال، ولكنها آثرت الصمت.

2

مع بزوغ شمس الصباح كان عدد من أهل الخدمة يقودون الجارية قمر إلى القصر وقد أركبوها على بغلة بيضاء مريحة، وأمروها أن تسدل الخمار على وجهها. وسلكوا بها طريقاً جانبياً لا تزدحم فيه الأقدام. وحاذروا أن يكون المنظر لافتاً للانتباه. وقد اختاروا مطلع الفجر كي يسبقوا دخول موكب السلطان، إذ بدأ الناس يتوافدون كرهاً أو طوعاً للاصطفاف على طول الطريق الرئيس الذي يقطع وسط المدينة إلى القصر، وكانت دموعها تنحدر على خديها بلا توقف حتى بلغ موكبها إحدى البوابات الجانبية للسور المحيط بالقصر. وإذ عبرت من البوابة أذهلها المنظر البديع عن نفسها ودموعها، وبحركة عفوية كشفت الغطاء عن وجهها وجففت دموعها لتجيل بصرها بلا عائق. كان القصر الرئيس ينتصب على تلة متوسطة الارتفاع، وثمة دور فخمة أخرى تقع في مناطق متفرقة من المساحة الشاسعة التي تتوزع فيها الحدائق الغناء وبسائط العشب وقنوات المياه الجارية. وينتهي ذلك كله إلى بحيرة تتلألأ عليها شمس الصباح الرائق. وفي جانب آخر رأت مسطحاً مخططاً أدركت من شكله أنه ملعب للكرة والصولجان. وفي أماكن متفرقة بين مسطحات الحدائق رأت مقاعد مستطيلة من الرخام البديع. ولم

تفق من ذهولها إلا حين توقف الركب عند باب خلفي للقصر الكبير مخصص للحريم والخصيان، حيث كانت مدبّرة الجواري تنتظر مع جاريتين أخريين من أهل الخدمة. مدت المدبّرة ذراعها لتساعدها على الترجل. كانت المدبرة في الستينيات من عمرها كما يبدو، وكانت ما تزال تحتفظ بمسحة من جمال قديم وتبالغ في زينة لا تنسجم مع عمرها. ولم يكن وجهها لينبئ عن أي مشاعر واضحة. ولم تبادرها بكلمة ترحيب واحدة بينما كانت تتفحّصها بتمعّن. وبينما كانت تقودها عبر ردهات القصر الداخلية لم تكن قمر بأقل ذهولاً بجمال المعمار وفخامته من ذهولها بحدائقه وساحاته الخارجية، حتى دخلت بها إلى حمام الحريم الداخلي حيث كانت تنتظر بعض جواري الخدمة الأخريات. أشارت لها المدبّرة أن تخلع ثيابها، ولما رأت ترددها تقدمت الأخريات ليساعدنها على المهمة، وهنا انتفضت متراجعة إلى الوراء مع صرخة احتجاج أثارت عجب الأخريات. سألت المدبّرة:

- ما دهاك أيتها الفتاة؟

- لن أخلع ثيابي أمام أحد.

أطلقت جواري الخدمة ضحكات ساخرة، فأرسلت المدبّرة لهن نظرة رادعة محافظةً على جمود وجهها، ثم توجهت إلى قمر:

- ألا ترين أنك في حمام الحريم وأن علينا أن نعدّك للسلطان بالغسل والطيب والزينة؟

- وهل تحسبين أني خرجت من دار النخاس دون أن أتهيّأ بذلك كله!

- دون أن تخلعي ثيابك؟

على الرغم من نبرة السخرية، فإن ملامح المدبرة بقيت على حالها من السكون والجمود، بينما ندّت ضحكات ساخرة أخرى من سائر الجواري الحاضرات، أخمدتها المدبرة من جديد بنظرة عابسة صارمة. أجابت قمر:

- فعلت ذلك بنفسي. لا أحتاج إلى مساعدة أحد. وإن كان لا بد من أن أعيد ذلك الآن، فبنفسي فقط. لن أخلع ثيابي أمام أحد.

- ألم تذهبي يوماً إلى حمام النساء؟

هزت رأسها بالنفي. ومرت لحظات صمت. ثم أشارت المدبرة برأسها للجواري الأخريات بالخروج، وبقيت وحدها مع الجارية الجديدة العنيدة. وبينما عادت المدبرة لتتفحصها بنظرات عميقة سابرة، حاولت قمر تجنب نظراتها.

- إن كان في جسمك عيب تحبّين إخفاءه، فخير لك أن أعرفه أنا الآن قبل أن ينكشف لسلطان الزمان حين لا يكون بوسعك أن تمتنعي عن خلع ثيابك!

اهتزت قمر وانقبضت ملامحها بشدة، ولكنها أجابت فوراً بأسلوب دفاعي قاطع:

- لا عيب في جسدي. ولكن العيب في أخلاق الناس...

لأول مرة تتحرك ملامح المدبرة لتعبر عن الاستغراب، بينما تابعت قمر كلامها:

- لا يجوز في شرع الله أن تكشف المرأة عورتها حتى للنساء.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟ حرم الله ذلك على الحرة، وأباحه للجارية؟ إذن فاعلمي أني لم أخلع ثيابي للحمام أمام أي امرأة، إلا... أمي... ولم أكن في ذلك الحين صبية بالغة... وكنت ما أزال حرة على ما ولدتني أُمّي!

نزلت المدبرة جالسةً على إحدى الأرائك وقد اكتسى وجهها بالوجوم والشرود، وزالت عنه كل ملامح القسوة التي تلامس السلطة.

- اجلسي يا...

همّت أن تنطق باسمها القديم، ولكنها استدركت على نفسها في آخر لحظة اختصاراً للأخذ والردّ.

- قمر.

- أحسب، أن هذا ليس اسمك القديم الذي سمّاك به أبواك... حين كنت ما تزالين حرّة على ما ولدتك أمك.

هزت رأسها هزة خفيفة وهمست:

- سلمى.

ردّدت المدبّرة بهدوء:

- سلمى. أم م م. ومع ذلك لا يسعني أن أناديك بغير الاسم الذي عُرفت به... قمر... أنصتي يا قمر... أهم أن أقول: اجعليني في مقام أمّك. ولكني أعلم أنها صارت عبارة مبتذلة لا يعنيها قائلها

ولا يصدقها سامعها. وأنا بعد خادمة السلطان وحرمه. ولو أُمرت أن أؤدبك لما وسعني إلا الطاعة، حتى لو علمت أنك مظلومة. ولكني رأيت منك الآن ما لم أرَ في واحدة من الجواري... أو لعل الأصوب أن أقول: لم أرَ منك ما اعتدت أن أرى من إحداهن حين تُضَم إلى حريم السلطان. فأي حظ أعظم من حظها؟ إذ خاصّة السلطان سلاطين على غيرهم. فإن حَظِيَتْ عنده بعد ذلك، فكأنما حيزت لها الدنيا. أما أنت، فأرى أثر الدموع في عينيك. ولا تدل علامات الحزن في وجهك على أنها دموع الفرح! فأي جارية تدخل قصر السلطان على هذا الحال... إلا أن تكون...

تريّثت وهي تتفحص قمر من جديد كأنها تخترق موضع سرّها، بينما تنبهت حواس قمر كلها.

- إلا أن تكون عاشقةً معشوقة حيل بينها وبين صاحبها!

تهتز قمر كأن أفعى قد لدغتها، وتهم أن تعترض، ولكن المدبّرة تسرع بالكلام مع حركة اعتراض من يدها.

- ليس عليك أن تبوحي أو تنكري... بل لا أريد أن أعلم يقيناً فأحتمل منه عبئاً ثقيلاً. وحتى لو كان، فلا سلطان لأحد على القلوب. إنما السلطان على الجوارح، فهي مناط المساءلة والتهمة! هل تفهمين هذا؟

تكتفي قمر بالإطراق، بينما تتابع المدبرة:

- لقد رأيت في هذا القصر ما لم يره السلطان نفسه. وعلمت أن رغبات الناس لا تتم إلا بالناس، ولا تنقمع إلا بالناس! فهم

أسباب تحققها، وهم أسباب وأدها. ولكن، ليس تحققها أحياناً بأفضل من قهرها. وربّ رغبة تسلطت علينا يوماً فلم نشْف منها غليلاً، ثم حمدنا الله بعد حين أنه صرفها عنا!

كانت قمر تستمع وقد أذهلتها حكمة المدبرة وفراستها. ولئن رفضت أن تعرّي جسدها للحمام أمام الأخريات، فها هي المدبرة تعرّي دواخلها وتقرأ خباياها.

- كان بوسعي أن آمر الخادمات أن يُجَرِّدْنَكِ من ثيابك قسراً، ولكن أعجبني منك خصلتان يندر أن تجتمعا: الحياء، وقوة النفس. إذ كثيراً ما يلتبس الحياء بالضعف، وقوة النفس بالصفاقة. ولذلك سأدلّك الآن كيف تتدبرين الأمر بنفسك، ثم أنزوي أنا في مكان لا أراك منه حتى تفرغي. ولكن... لا تبوحي بهذا فتتجرّأ الأخريات على مخالفة أمري.

تلاقت نظراتهما لأول مرة فيما يدل على الرضا المتبادل. سألت قمر:

- لم أعرف حتى الآن بِمَ أناديك.

- عُرَيب.

ثم أردفت بأسلوب متهكم مع طيف ابتسامة.

- أعلم أن الاسم لا يناسب سني الآن. ولكني لم أكن دائماً بهذه السن!

* * *

انتهى الاحتفال باستقبال موكب السلطان المظفّر دون وقوع ما يعكر الصفو. فالشعب قام بواجبه في الهتاف والتلويح على أحسن وجه يرجوه قادة الشرطة. ولِمَ لا، وكل من اصطف هناك يخشى أن يكون الرجل الذي يهتف إلى جواره من العيون المنبثين بين الصفوف. وقد علم الناس أن الحساب لا يقع فقط على من يقف صامتاً ويكتفي بالنظر، وإنما كذلك على من لا يبدي حماساً كافياً برفع الصوت وتعابير الفرح. فكانوا يبالغون في ذلك حتى عاد بعضهم وقد بحّ صوته وتكاثرت لعناته المكتومة.

وإذا كانت مهمة العامة قد انتهت عند هذا الحدّ. فإن مهمة الوزراء والأعيان والقادة والكُتّاب تبدأ الآن في مجلس السلطان بقصره إذ يجلس لتلقّي التهاني منهم. وهؤلاء مهمتهم أشق من مهمة العامة، إذ يتبارون في إلقاء الخطب والأشعار بين يدي ولي الأمر الذي يملك مفاتيح العطاء ومفاتيح المنع. وربّ كلمة في حضرة السلطان أردت بصاحبها أو رفعته وأغنته. وليس مناط الأمر النيّة والقصد. فالكل يستوي في قصد الرضا والإنعام. إنما مناطه الفصاحة والبلاغة والتنبه إلى مصائد اللغة إذا لم يحسن الرجل انتقاء ألفاظه ومناسبتها لمقتضى الحال. ومما يجعل الأمور أكثر مشقة وتعقيداً أن على الرجل في كل مناسبة أن يأتي بجديد يفارق به منافسيه، ويفارق به ما سلف منه في ميدان التزلف والنفاق. فتضيق الخيارات وتزيغ العبارات. وقد يستعين بعضهم بكُتّاب من أهل الفصاحة الذين لم يتصل أمرهم بالسلطان، لقاء ثمن يقرره الكاتب على قدر ما يرى من لهفة الرجل وحاجته! ولكن هذا أمر محفوف بالمخاطر، فالكاتب المأجور لم يألف الآداب السلطانية فقد لا يعلم دقائق المحذور والمحظور في خطاب السلاطين عامة، وسلطان الزمان خاصة.

حين جلس السلطان ركن الدين على سرير الملك، وأذن بجلوس القوم، أطرقوا برؤوسهم على حد العادة، وسكنت أصواتهم وجوارحهم فلا تسمع لهم حساً، حتى يؤذن لهم. ثم ناجى الحاجب أبا العباس الدينوري، ناظر المدارس السلطانية، وكان من الخطباء المعدودين، أن يقف بين يدي السلطان المعظّم ليلقي خطبته.

حاذر أبو العباس أن يجاوز الحدّ المقبول من القرب أو البُعد في موضع وقوفه، واجتهد ألا تتخذ هيئته صفة الواثق المطمئن، ولا صفة المروع المهزوز. وإنما هي منزلة بين المنزلتين. ففي الأولى تعدٍّ على هيبة السلطان، وفي الثانية إيحاء بشطط جبروته. والطريق إلى رضا السلطان وسط بين الخوف والرجاء.

- بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين واهب النصر، ومنزّل القَطْر، وماحق الكفر. الحمد لله الذي عقد النصر بلواء مولانا السلطان المعظم، يدور أنى دار، وجعل الحق قرينه في القول والعمل، حتى صار وإياه سواء، بل هو معياره وميزانه وصورته المتجلية. فمن وافق مولانا وأطاعه فإنما يوافق الحق ويمتثل لحكمه. ومن أبى فقد جعل نفسه مطيّة للباطل والطاغوت. وأما بعد، فيا مولاي المعظم، يا من اصطفاه الله ليكون سبب نعمته على من أنعم الله عليه، وسيف نقمته على من عصى واستكبر. هذا يوم من أيام الإسلام. وإن سرورنا بنصر الله لكم لا يعدله إلا سرورنا بمقدمكم سالمين غانمين صالحين. وها هي البلاد التي استخلفكم الله عليها وبايعكم أهلها على السمع والطاعة في المنشط والمكره، ها هي قد أخذت زخرفها وازينت لمقدمكم...

هنا نخر السلطان نخرة استياء أخمدت صوت أبي العباس وانخلع لها قلبه وأرجفت بساقيه. فتوقف حائراً بعيون زائغة يستطلع السبب والعاقبة. وران الصمت على الحضور حتى لكأن على رؤوسهم الطير. ولم يكونوا بأعلم من أبي العباس بالسبب، ما عدا القاضي الذي عُرف بذكائه الخارق. ولم يغمره الشعور بالإشفاق على الناظر التعس بقدر ما غمره سرور دفين بالفرصة التي أتيحت له الآن لاستعراض فطنته عند السلطان.

- ائذن لي يا مولاي.

هز السلطان له رأسه بالإذن هزة خفيفة. فذهب القاضي بوجهه إلى الشقي.

- يا أبا العباس. قد كره مولانا السلطان بفطنته وقوة عقله وسرعة بديهته سوء اقتباسك من كلام الله تعالى في غير موضعه، وإنزالك إياه في غير منزله. قلت: «ها هي البلاد قد أخذت زخرفها وازينت...». وهذا من كلام الله تعالى إذ يقول: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغنَ بالأمس) فبئس ما استعملت له كلام الله إذ تذكّر بنقماته في مواقف نَعْمائه، وتُذكِّر بإذلاله من خالف عن أمره في مواقف إعزازه من أعزّ أمره. فأين ذهب عقلك يا أبا العباس!

هز السلطان رأسه هزة أخرى خفيفة جهة القاضي مؤيِّداً، بينما شعر أبو العباس أنه يهوي في جُب بلا قرار. ولكنه لا يملك مع السلطان حتى تَرَف انحباس اللسان طويلاً مع الرعب. فكان لا بد أن يستجمع نفسه التي تفرقت أجزاء ليرتجل اعتذاره.

- مولاي وسيدي وولي نعمتي ومالك رقبتي وناصيتي، كيف لي أن أعتذر منكم وقد سبق السيف العذل. ولئن لم يفت فطنتكم خطئي، فلا يفوتها أني ما قصدت إلى شيء من تلك المعاني. ولكنه سوء طالعي قد أوقع بي على غير قصد مني ولا سوء طوية. فهل إلى معذرة من سبيل؟ وهل يتسع حلمكم لخطأ مهما يعظُمْ فلن يكون أعظم من عفوكم وفضلكم؟ إن أخذتني بخطئي فأخذة عادل مقتدر. وإن عفوت وصفحت فعفو المحسن القادر. فهل يسعني أن أفر من عدلك إلى فضلك، ومن غضبك إلى عفوك؛ هل لي أن ألوذ بك منك؟!

كان السلطان يهمس لحاجبه في هذه الأثناء. فما إن فرغ أبو العباس من توسلاته حتى توجه الحاجب إليه بالكلام.

- يا أبا العباس. قد علم مولانا أن لسانك قد خانك على غير قصد منك، وإلّا لكانت خطيئة لا يكفرها إلا دمك.

ارتخت ملامح أبي العباس وقد ظن أنه نجا، بينما تابع الحاجب:

- ولكن الجهل في حضرة السلطان لا يُعفي من العقوبة. فلا يحضر مجلس مولانا من كان جاهلاً. وقد ذكر مولانا مآثرك السابقة، فاكتفى بطردك من مجلسه ومن ديوان ندمائه ومن المناصب التي كنتَ عليها. وأن يُصادر مالك ودورك وضياعك التي وهبك إياها مولانا. فأنت في ذلك كالسفيه الذي لا يترك له التصرّف في ماله. إلا أن مولانا يبقى عليك ما يكفي لمعاشك ومعاش عيالك. فاحمد الله، واشكر مولانا على حلمه وعفوه وتفضله...

في تلك اللحظة لم يكن على أبي العباس أن يتكلف مظهر الفرح والشكر والامتنان. فقد كان هذا شعوره حقاً. حسبه الآن أنه نجا من السيف. أما الخسارة الفادحة في المال والمناصب، فسيكون معه وقت للبكاء عليها غداً إذ يتراجع في وعيه ما نجا منه، ليتقدم ما عوقب به.

لم يخرج أبو العباس وحده من المجلس. كان يكفي ما بدر منه ليفسد المجلس كله ويتغير مزاج السلطان. فأشار بخروج الجميع. فمنهم من أسرَّ فرحه بأن أُعفي من اختبار الفصاحة الشديد، ومنهم من أخفى ضيقه لأنه فَقَدَ مناسبة كان يمكن أن تعود عليه بالعطايا.

أما السلطان فآثر البقاء وحيداً في مجلسه، بعد أن سرّح حاجبه أيضاً وطلب من الخادم إطفاء المصابيح إلّا واحداً. وبدا حزيناً منقبضاً شارد الذهن وهو يستلقي على الأريكة ويسند رأسه على ذراعه. ولم يلتفت حين سمع صوت زوجه الخاتون.

- علمت بالذي حدث! تظنّه قصدها؟

مرت لحظة صمت، قبل أن يجيب بصوت هادئ لا انفعال فيه:

- وهل كان يجرؤ؟ من هانت عليه حياته لم ينفقها في كلمة أو تورية، حتى يشهر السيف.

- فيمَ عظّمت له العقوبة وقد كان من أخصّ جلسائك؟

أجاب بصوت أكثر نشاطاً وقوة:

- لم أعاقبه على شيءٍ مما ذُكر... إنما عاقبته لاستخفافه بعقلي. كان ينافقني وهو يعلم أنه يكذب، وأنا أعلم أنه يكذب، والشهود

يعلمون أنه يكذب، ويُعدّون أنفسهم ليباروه في الكذب والنفاق. وما عساهم يقولون بعد قوله، وقد جعلني شريك الله في صفته. فأنا الحق. والحق أنا. يُعْرَف بي ولا أُعرف به. لا أُسأَل عما أفعل وهم يُسْألون! فمن وافقني وافق الله، ومن خالفني خالف الله. فجأةً شعرت بأنه لا يعظّمني إلا بقدر ما يكفر بالله ويستخف بعقلي... فهان عندي أن أقتله بهما... ومع ذلك لم أفعل.

- هذا رجل نكبته لأنه أمعن في النفاق. فماذا لو تجرأ عليك بكلمة... يراها حقاً؟

رمَقَها بنظرة غامضة سريعة، وآثر الصمت.

- تنكبه أيضاً! أليس كذلك! تنتقم من الجريء الصادق، وتنتقم من الكاذب. من أبقيت من الناس!

اكتفى بالإطراق، وذهب في شرود بعيد. بدا كعادته متوحداً مستوحشاً. وكانت قد ألفت منه ذلك. فالقمة في حال السلطان لا تتسع لغيره، والملك كما قيل عقيم، لا يبقى معه نسب ولا صِهر ولا صاحب ولا حبيب. والناس بين عدو صريح وعدو خفيّ ومتزلّف كذاب.

لم تكن بالزوجة المحبّة وإن كانت المقدَّمة بين نسائه، وصاحبة الأمر والنهي في خاصّة قصره. ومع ذلك كان يخامرها بين الفينة والأخرى شعور غامض بالإشفاق عليه، لما ترى من وحشته وتوحّده. ولم تكن مظاهر التعظيم والهتاف والاحتشاد في المناسبات العامة لتغرّها عن واقع الحال. فهي تدرك ما يدركه هو من أن العامة تخشاه ولا تحبه. ومهما يكن الحجاب المضروب بينها وبينهم فإنه

ليتناهى إلى سمعها أنهم يصفونه بالوحش. وإذ ترى انقباضه واستيحاشه تتذكر أن الوحشية والوحشة والاستيحاش كلها ترتد إلى جذر واحد. بل إن وحشته لا تستخفي حتى في النوبات المتقطعة التي يُقبِل فيها على المتع واللذات فيسرف فيها إسراف من يظن أن شمس الغد لن تطلع عليه. لكأنه يريد أن يثبت أن انصرافه الطويل عنها ليس لعجز فيه، وأنه يمعن في ذلك لأنه ببساطة يستطيعه، أو لعله يرجو به ساعات من الغفلة والنسيان. إنه على نحو ما أسير قوته. ولئن كان هو المسؤول ابتداءً عن صنع تلك القوة الطاغية، فإن القوة المصنوعة ما تلبث أن تصير صانعة، فتفرض شروطها على مالكها، وتلزمه استعمالها حتى تصبح كلفتها ومغارمها في لحظة ما أكثر من مغانمها. ولكن، لا سبيل للرجوع عنها بعد الذي خلّفته وراءها حتى لو لم يعد أمامها إلّا المهالك.

طوى جسمه على سرير الملك مستنداً برأسه ويديه على إحدى حشاياه. وكانت تلك إشارة معتادة تفهم منها أنه لا يرغب الآن في الإيواء إلى فراشه، وأنه يرغب أن تتركه وحيداً. قالت بأسلوب عارض هادئٍ وهي تتجه للخروج:

- ابتعت لك جارية من أجمل النساء، وأحسنهن صوتاً وأكثرهن علماً. سأدخلها عليك، لعلك ترى وتسمع منها ما يُسرّي عنك.

لم يجب، وكأنه لم يسمع شيئاً.

كانت قمر تقف لدى الباب في الانتظار. وقد سمعت طرفاً من الحوار، بل تعمّدت أن تصيخ سمعها لتقدّر ما الذي تُقبِل عليه.

استرجعت وصايا أبي حسان كلها، ثم قررت أن تطيع غريزتها الداخلية. وإذ دخلت بهدوء تحمل بيدها عوداً انحنت له عن بُعد.

- مولاي.

كانت ظلال العتمة الجزئية تسقط عليه فلا يظهر لها بوضوح. لم يتحرك من مكانه ولم ينبس لها ببنت شفة. فجلست على أقرب مقعد دون أن تنتظر إذنه على خلاف الوصيّة. ولما طال الصمت ولم يبدِ السلطان أي اهتمام وكأنه لم يشعر بدخولها كان لا بد أن تبادره على حذر:

- أنا بأمر مولاي.

بعد لحظات أخرى من الصمت، وعندما ظنت أنه ذهب في النوم سمعت صوته يخاطبها لأول مرة بنبرة خاملة، دون أن يدقق النظر فيها.

- ما اسمك.

كادت تجيب بأن اسمها قمر، ولكنها استدركت بسرعة:

- سلمى بنت ميمون الداريّ.

هنا رفع رأسه قليلاً لأول مرة دون أن يعتدل بجسمه من ضجعته على الأريكة، وأرسل نحوها نظرة حائرة مستفسرة، وإن لم يكن بوسعها أن تتبين ملامح وجهه حتى الآن في عتمة الموضع الذي لم يبلغه ضوء المصباح اليتيم الشاحب.

- كيف قلتِ؟

- سألتني عن اسمي يا مولاي... سلمى بنت ميمون الداري.

- ما هذا باسم جارية!

- وكيف ينبغي أن يكون اسم الجارية يا مولاي!

- أعني ليس من المألوف أن يكون اسم الجارية على غرار أسماء الحرائر. وإنما هو لفظ تشبيه في العادة: جمانة، زمردة، ريحانة، ورد، ياسمين، وهكذا... شيء يتعلق بالجمال أو الظرف، أو الزينة! أما سلمى وليلى وهند وزينب وعاتكة فغريب... غريب حقاً! والأغرب منه أن تنتسب الجارية فتذكر في اسمها أباً وجدّاً ولقباً كسائر الناس.

- أليست من الناس يا سيدي!

- ربّما... ولكنها جارية أيضاً. تتعرّف باسم واحد... الاسم الذي تُنادى به.

- ولكن الجارية لم تسقط من السماء ولم تنبت من الأرض! إنما ولدت لأب وأم كغيرها من بني آدم... ولها نسب فيهم. والكل لآدم، وآدم من تراب. وإن أكرمنا عند الله أتقانا... وحد التقوى لا يعلمه إلا الله. هل أخطأت في فهم نصوص الدين يا سيدي!

أدركت هنا أنها نجحت في جلب اهتمامه حين بدأ يعتدل ببطء من ضجعته إلى وضع الجلوس على الأريكة. ولأول مرّة ينعكس ضوء المصباح على وجهه وجسمه ليظهر لها بوضوح كافٍ اهتزت له جوارحها. لم تكن هزة الرهبة التي تصحب رؤية الشيطان لأول مرة. ولكن، هل يمكن أن يتمثل الشيطان في مثل هذه الصورة

البديعة من الوسامة والفتوة والجمال!! أين القرنان والحاجبان الكثان والعينيان الجاحظتان اللتان تقدحان شرّاً وشرراً؟! أين العنق القصيرة المركبة على كتفين ضيقتين وظهر متقوّس؟! أين الساقان الغليظتان القصيرتان اللتان تحملان جذعاً لا خصر له؟! هذا الرجل الذي تنظر إليه الآن يبدو في بركة الضوء الشاحب وكأنه خلق كما يشاء من رأسه حتى أخمص قدميه. لكأنّه فارس قد انبعث من عالم الأحلام والملاحم والأساطير. كيف يمكن أن يكون الشرّ بهذا الجمال الآسر والفتوة القاهرة؟ بل هو الشيطان في أخطر صوره، حين يكاد منظره الجميل يصرف التفكير -ولو للحظة- عن مخبره القبيح، حتى يأخذك على حين غرّة وأنت غافل عن نفسك. أليس الرائع المدهش والمريع المفزع من جذر لغويّ واحد؟ فهذا الوحش الجميل كلاهما معاً. وهو ما زادها غيظاً منه، ذلك أن اجتماع الضدّين مربك للخصم على نحو ما.

كاد استغراقها في التأمّل أن يشغلها عن سماعه وهو يتابع حجاجه :

- أصبت في القاعدة، وأخطأت في إنزالها على واقع الأمور. نعم، التقوى لا يعلمها إلا الله. وهي مدار التفاضل عند من يعلمها وحده. أما البشر الذين لا يعلمونها، فكل على منزلته من نظام الدنيا وناموس الحياة. والآن فهمت مرادك... أما اسمك الذي سمّاك به أبوك فقد كان في زمن آخر وحياة أخرى، وكلاهما قد انقضى ولا يعني من يناديك... فما اسم الجارية الآن؟

- قمر.

- أليس عندنا جارية أخرى تدعى «قمر» أيضاً؟

- لا أدري... ربما... أنا جديدة... ولكن... أليس...

ترددت قليلاً قبل أن تستأنف:

- أليس من المفروض أن يعرف مولانا جواريه؟

اهتز قليلاً كما توقعت، بل كما أرادت. وبدلاً من الخوف زادها ذلك ثقة وشجاعة.

- المفروض!! يحسن أن تعتني بانتقاء ألفاظك أيتها الجارية. ليس على السلطان فرض مفروض! ألم يعلموك ذلك في دار النخاسة!

- علموني أشياء كثيرة... وزودوني وصايا كثيرة... ولكن لو أطعتهم لما اعتدلت في جلستك يا مولاي، ولما وجدت في نفسك أن تخاطبني وتسمع مني!

لم يرد أن يجهر بتأييدها وقد وافق كلامها حقيقة الأمر. هذا صوت مختلف لم يألفه من قبل. ولم يقطع حتى الآن إذا كان يسرّه أو يسوؤه، وإلى أين سيفضي، ولكن الجديد الغريب يغري بالاهتمام على كل حال. وفي المقابل أغراها سكوته عن كلامها الأخير، بأن توغل خطوة أخرى في اختبار خطتها في إثارة اهتمامه ونشاطه.

- لو كانت الأخرى قمراً حقاً لتذكرتها يا سيدي.

- قمر، بدور، شمس... من يذكر قمراً بين تلك الأقمار!

- ليس العتب على الذاكرة يا سيدي. إنما هو على المذكور. فلو كانت تستحق لذكرتها!

- هه! ربما كنت محقّة.

ها هو قد أقرّ لها بصواب الرأي. فلتذهب وصايا أبي حسّان إلى الجحيم. قد صدق ظنها وصحّ تقديرها. هذا الرجل المستوحش المتوحّد لا يرغب في قمر آخر وزمردة أخرى، ولا في سماع المدائح الكاذبة التي لو أعيد إلقاؤها بين يدي سلطان آخر لما أدرك أحد أنها قيلت في غيره أولاً! إنما يريد أحداً يخاطب شخصه، ولكن دون أن يتعدّى على هيبته. وهو مطلب بعيد صعب محفوف بالمجازفة. فما هو الحد الذي لا ينبغي تعدّيه؟ فحتى السلطان، صاحب الحد، لا يستطيع رسمه بدقة في نفسه. وهو ليس ثابتاً في ذاته في الأحوال كلّها، إذ يتقدّم أو يتأخر قليلاً مع تقلب مزاج السلطان، وطبيعة الموقف وشهوده، وعلى أي حال فإن من المفارقة أن وضع الجارية يجعلها في هذا الأمر في حال أفضل وأقوى من الرجال الأحرار، وحتى من القادة والأعيان. فهي أقلّ وأضعف من أن تلحق بها شبهة التحدّي والتطاول المقصود والجرأة المميتة وأطماع الأقوياء. كما أنها لا تتواصل مع السلطان إلا في حيّز خاص لا شهود عليه من الخارج، وفي جو حميمي أحياناً يتحمل إسقاط الكلفة. فإذا تجاوزت الحدّ قليلاً إما أن يُحمل ذلك على الدلال، وإما على الحمق وضعف العقل مما يلحق بالأنثى عامّةً وبالجارية على وجه التخصيص.

غَمْغم السلطان كأنه يخاطب نفسه في مسألة خامرت تفكيره:

- هه! قمر! لا أدري لماذا يسمّون الجارية قمر، ثم يجعلون اسم بدر للغلام، وكلاهما معنى واحد. وكلاهما مذكّر؟ فلماذا يصحّ أحدهما في الأنثى، ولا يصحّ الآخر؟ هه! فإذا جمعوا بدر على بدور

صحّ الجمع أن يكون اسماً للجارية، بخلاف مفرده! أين العقل في هذا؟ أين المنطق؟

-علمونا أن اللغة عُرف يا مولاي تتواضع عليه الجماعة، وليست أمراً تفرضه طبائع الأشياء. وعلمونا كذلك أن التأنيث والتذكير يمكن أن يكون أحدهما معنوياً لا لفظياً... كأن...

قاطعها بنبرة مستعجلة متضجرة:

- نعم، نعم. كتأنيث الشمس وتذكير القمر... ونحو ذلك. يبدو أنهم أحسنوا تعليمك.

- أو أني أحسنت التعلّم.

رَمَقَها من جديد بنظرة متفحصة مستطلعة، فلم تعرف هل هي نظرة إعجاب أم ضيق. حرّك يده كأنه يستعدّ لصرفها، فأسرعت بالكلام.

- أسمعك صوتاً يا سيدي؟

أجاب بغير حماس:

- هاتي إن كان هذا يهمّك. صوتاً واحداً ثم انطلقي.

ضربت على العود بحذقٍ، وغنت بيتاً من شعر جميل بثينة، وقبل أن تنتقل إلى البيت الثاني أسكتها بشيء من الضيق والانفعال:

- غزل... غزل!

- ألم يعجبك صوتي يا مولاي؟

- صرفني الكلام السقيم عن الصوت. هه! رجل يموت صبابةً من أجل امرأة. فليمت أماته الله. هل يجب أن يعلن بضعفه ويشهدنا على لكاعته؟ هه! جميل بثينة! أفما كان يأخذها بالسيف بدلاً من...

تقاطعه قبل أن تتنبه إلى أن ذلك من سوء الأدب مع السلطان:

- لا تؤخذ المرأة بالسيف يا سيدي.

نخر مندهشاً من جرأتها، ثم وجد نفسه أكثر اندهاشاً من صبره عليها. ولأول مرة يقف ويتحوّل بوجهه وجسمه نحوها.

- كل شيء يؤخذ بالسيف... أو المال!

ثم أشار إليها إشارة دالة وهو يستأنف الكلام.

- أنت أجدر الناس بأن تعلمي ذلك.

أدركت القصد.

- فليكن. ربما أخذت المرأة بالسيف... أو المال... أو السيف والمال. ولكن لا يؤخذ قلبها.

- ومن يريد قلبها؟

أجابت بسرعة وبلهجة قاطعة:

- من كان له قلب مثلها.

تمشّى قليلاً في المكان:

- القلب! هه! أهذا خير ما يعلمون الجواري؟

- أما هذا فتمليه الطبيعة والفطرة والقلب نفسه، لا المؤدبون. قل لي يا مولاي...

يقاطع ساخراً.

- هل أقول: السمع والطاعة أيتها الجارية!

- العفو يا مولاي... إن شئت سكتُ عن السؤال.

أخذت تراقبه وهو يتمشى قليلاً قبل أن يجيب.

- قولي!

- هل تحب شعبك؟

- ما هذا السؤال؟ بالطبع أحب شعبي... أنا الراعي والحامي والسلطان... ووالد الجميع.

مكتبة
t.me/t_pdf

- وهل يحبك شعبك؟

- هل تعلمين أي الأسئلة أكثر سُخفاً، وأنت من أثنوا عليها بالعقل والفطنة؟ أسخف الأسئلة ما لم يكن لأحدها إلا جواب واحد قاطع لا مجال للاختلاف عليه، ولا معنى لترقبه. فهو تحصيل حاصل. فالسؤال عنه حمق وفضول. وكذلك سؤالك عن حب شعبي لي.

- تعني حين لا يكون ثمة خيار في الإجابة! فليكن... إذا كان كذلك، فكيف تحب شعبك دون أن يكون لك قلب تحبهم به، وكيف يحبك شعبك دون أن يكون لهم قلوب يحبونك بها. فإذا كان الحب بين الراعي والرعية يوجب وجود القلب الذي نحب به، فكيف لا يكون هذا في الحب بين الرجل والأنثى؟!

- إنك لجريئة!

- ألستَ من سخر من القلب قبل قليل؟

- هيا... هيا اخرجي... لو كنت أقيم لك وزناً لغضبت. وغضبي نقمة وعذاب. ومع ذلك لا تعوّلي كثيراً على هذا... هيا.. لم يعد لي بك حاجة الآن.

- وكان لك قبل الآن؟

نهضت من مكانها ومشت نحو الباب، ولكنها توقفت هناك، بينما كان يراقبها بطرف عينه. فجأة استدارت في مكانها نحوه وبادرته بسؤال:

- هل أحببت يوماً امرأة؟ إن لم يكن بعد السلطان وتشابه الأقمار والنجوم والزمرد، فقبل ذلك، حين كنتَ...

- لا تكفين عن إدهاشي بجرأتك أو الأصح بصفاقتك. فطنة وحمق؟ هل يجتمعان؟ نعم، نعم، يجتمعان أحياناً... ثمة عالم ما زال في صحبة الكتب، حتى غفل عن طرق الناس... فأصابه الخَرَق.

كانت قد أدركت من صبره السابق عليها، أنه يرغب في المزيد وإن لم يُبْدِ بذلك فأحبت أن تختبر صواب تقديرها.

- العفو يا مولاي... لعلي قد جاوزت حدّي حقّاً... طاب مساؤك يا سيدي.

تحني له رأسها وتهمّ بالخروج. ولكنها كانت مصيبة في تقديرها.

- تريّثي.

ابتسمت ابتسامة الظَّفَر وهي مستديرة عنه، ثم محت ابتسامتها واستدارت نحوه.

- لا بأس. سأجيب. لا لشيء إلا لأن السؤال يغري بالحجاج، لا سيما مع المتحذلقين من أمثالك الذين غرّهم طول الثناء فظنوا بأنفسهم خيراً. فصار لا بدّ أن يردّهم أحد إلى منزلتهم كيلا يتمادوا فيهلكوا... والآن... لماذا أحِبْ امرأة؟ لماذا يحب رجل، أيُّ رجل، امرأةً بعينها دون غيرها؟ هه!

- تجيب يا مولاي أم تسأل؟

- قولي: لماذا؟

- ربما لصفات فيها وافقت طبعه ومزاجه.

- ربما ! هه! ربّما...

قالها ساخراً وتابع.

- وهل انْفَرَدَتْ بتلك الصفات التي اجتذبته دون نساء العالمين؟

- لا... ولكن... هذه دون غيرها من جمعه الله بها.

- إذن، لو أن الأقدار لم تجمعه بها، لوجد غيرها فوقع في غرامها سواء. أليس كذلك؟

ينظر إليها مستطلعاً ينتظر التأييد. تهز رأسها بالموافقة دون حماس.

- لا بأس... ولكن هل يجب أن تكون الأخرى مطابقةً للأولى في الصفات؟ أعني، قد يتعلّق رجل ما بامرأة، ثم يحدث ما يصرفه عنها ويصرفها عنه. فيتعلّق أخرى لا تشبه الأولى، لا في الرسم ولا الخُلُق. ألا يحدث هذا؟ هه!

تهز رأسها من جديد.

- أما الدعوى باتفاق الطبع، فلا حقيقة له. فقد يتعلّق قلب الرجل القوي بالمرأة الضعيفة، والرجل الحاد الطبع بالمرأة الهادئة، والفاسق بالتقية... بل يكفي القول: إن الرجل قد يقبل على امرأة تنفر منه. فلو كان أحبها لاتفاق الطبع لوجب أن تحبه للسبب نفسه. أليس كذلك؟ أزيدك إذن... هذا رجل أغرم بامرأة لصفات اجتذبته فيها، ثم حين اختبرها تبيّن له منها ما صرف قلبه عليها. فهل نقول إنه أغرم بالصفات لا ذات الشخص نفسه؟! هل هذا هو الحب الذي تغنّى به أولئك الشعراء؟ حب سلمى وليلى وزينب وهند؟

يراقب ردة فعلها من جديد، ويرين الصمت.

- ما بك؟ لماذا تصمتين الآن؟

- لا أدري... أعني... قوة الحجاج لا تعني الصواب دائماً (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً).

- آآه.. هذا مخرج العاجز إذا أُفحم... ولكن أنْصِتي الآن إلى فصل الكلام. ليس الحبّ الذي تغنّى به الشعراء، ودارت به أخبار العشاق إلا فكرة اخترعناها لنزيّن بها الطبائع الحيوانية، ثم نتسامى بها عن أصلها في الطين الذي خُلِقنا منه. فقد ركب الله فينا هذا الميل

بين الذكر والأنثى... غريزة عامة في الإنسان والحيوان، آلتها الشهوة وغايتها النسل. فلو لم تكن هذه الغريزة لانصرف الرجال إلى مطامعهم عن النساء والولد. وإذن لانقطع النسل. لماذا يحب الرجل امرأة بعينها؟ لأنه لا يستطيع الحصول على كل النساء، فهو يلقي على تلك المرأة كل ما يرغب في النساء. فإذا انقضت الرغبة انقضى معها وهم الغرام والهيام. وغابت معاني الشوق والسهر وأوجاع الهجر وآمال الوصال. فإن بقي شيء من المودة حلّ مكان حديث الغرام حديث الألفة والأليف وحُسْن المعشر والرعاية والوفاء والتذمم. كم من شعراء العرب والعجم مكث يتغزل بزوجه غزل العشق والصبابة؟! إذن فالحب الذي تتحدثون عنه إنما هو نتاج الحاجة والرغبة. فإن كان كذلك، فما حاجة الرجل الذي يستطيع أن يملك من يشاء من النساء... و... وحتى من لا يشاء منهن، ما حاجته إلى الحبّ؟!

- وهذا هو السلطان؟

- هيا... اخرجي الآن إلى حجرتك. انتهى هذا الحوار. لا أدري كيف رضيت أن أمضي به هذا الوقت. لا أدري منذ متى فعلت شيئاً كهذا؟

- أنا أدري!

باغتته العبارة.

- تدرين ما لا يدري السلطان عن نفسه؟!

- أنت تكابد الوحدة يا سيدي.

– أنا أكابد الوحدة؟ إنما يكابد الوحدة من يطلب الرفقة فلا يجدها. وأنا صرفت الوزراء والأعيان من مجلسي قبل أن يرتاحوا على مقاعدهم.

– وأمضيت في صحبتي كل هذا الوقت في ذلك الكلام.

– في صحبتك؟! السلطان في صحبتك؟! هل جننتِ أيتها الجارية؟

– يا مولاي. نعم، صرفت الرجال من مجلسك لأنهم كذابون منافقون، يخاطبون صفة السلطان لا الإنسان فيك... سلطان السطوة والنقمة والجبروت والعطايا. لا إنسان القلب والعقل والروح.

– وأنتِ؟ لا تخشين مني ما يخشون؟

– يا سيدي... لا منزلة الجارية تنسيني أنني إنسان، ولا منزلة السلطان تنسيني أنك إنسان. ولِمَ تغلب عليّ الخشية من السلطان؟ تنكبني؟ ليس عندي ما تنكبني به! أم تقتلني؟ أنا أقلّ من أن تثبت بي قدرتك أو تردع بي خصومك! كما أني أكثر زهداً بحياتي من زهدي بصفة الجارية وأنا التي وُلِدت حرة لأب حرّ. والآن هل تأذن لي يا سيدي؟

عندما أوى إلى فراشه وحيداً في تلك الليلة، ازداد عجباً من نفسه حين تنبه إلى أنه لبث يفكر فيها ويسترجع ما دار بينهما. وقد صرفه ذلك تماماً عن أرق التفكير في مشاغل الحكم، ولأول مرة منذ زمن طويل يغرق في نوم عميق.

أما هي فلبثت طويلاً تتقلب في فراشها الجديد. ولم يكن ليؤرقها إلا الخشية أن يدخل عليها فجأة. فهي جاريته التي ابتيعت لمتعته. وعزمت أمرها أنه إذا وقع ذلك، فسوف تعتذر له بما يعذر النساء كل شهر. ولكن إلى متى؟! وحين أعجزها التفكير في الطرق، قررت أن تؤجّل التفكير في الأمر إلى يوم آخر. وهنا غمرها شعور بالغضب تجاه المعلم علي كاد أن يطغى على مشاعر الحنين.

أما المعلم نفسه فبات ليلته كلها أرقاً مهموماً مغموماً يتقلّب على مِثْل الجمر، ويطلق نفثات حرّى، ويضرب رأسه بباطن يده بين الفينة والأخرى، بينما تنزل الصور المتخيلة على رأسه كالمنجنيق. هل تمكّنه من نفسها؟! وهل تملك الجارية أن تمتنع عن صاحبها؟ فكيف إذا كان السلطان!

أم ظنّ أنها تستطيع ما استطاعته شهرزاد مع شهريار فتشغله طويلاً بمتع العقل والقلب والقَصَص المشوّق! تلك حكايات لا نحب أن نفسد على أنفسنا متعتها بالسؤال عن صدقها وإمكان حصولها في واقع الحياة. ما الذي فعلته يا عليّ؟ لم يقدّر قبل الآن مدى غيرتِه عليها كلما تصوّرها في فراش السلطان. وكل المسوغات والغايات العظيمة التي دعته إلى ذلك التدبير وساقها لإقناع صاحبته قد أخفقت الآن في تهوين الأمر عليه. لم يعد ثمة مجال للتراجع عن خطة الثورة بعد الآن، وإلا فحياته كلها عبث.

3

مضى على التحاقها بالقصر نحو ثلاثة أسابيع دون أن يقع شيء من مخاوفها في أن يدعوها السلطان إلى مخدعه أو يفاجئها في مخدعها. وفي المقابل لم يتحقق شيء من رجائها في أن يدعوها السلطان إلى مجلس أُنسه لتمضي في خطتها في التقرّب إليه والحظوة عنده والفوز بثقته. هل يعقل أن يكون قد نسيها بعد ذلك اللقاء الأول الذي ظنت أنها فازت فيه باهتمامه حتى انخرط معها في حجاج طويل صحا معه فؤاده من وحدته ووحشته. الحجاج آلة الإقناع والإفحام بقوة المنطق والحجة بين الأنداد من أصحاب الرأي. وما حاجة السلطان إلى ذلك وحجة السيف تغنيه عن حجة العقل؟؟ إلا أن يكون حجاجه الأول مع قمر استجابة غامضة لحاجة مطمورة استيقظت في نفسه، وأعان عليها أن التي حاورها قد حرّضت فؤاده وعقله وحواسه دون أن تملك شيئاً من أسباب الخطر التي يمكن أن يملكها الرجال من حوله. فهي تملك ما لا تملكه سائر الجواري، وتفتقر إلى ما يملكه أعيان مملكته. وأي إنسان في عالمه يجمع بين هذين المطلبين العزيزين!

فلماذا نسيها إذن وتركها تتوزع بين شعورين متعارضين. فكل يوم يمر عليها دون أن يطلبها لمتعة الجسد يمنحها شعوراً

بالراحة ويحررها من قلق مرهق، وإذ لا يدعوها أيضاً إلى مجلس أنسه ومتعة السماع والكلام والنوادر فإن ذلك يورثها شعوراً مكافئاً بالضيق والقلق والإخفاق. ولكن، كيف ظنت أنها يمكن أن تفوز عنده بالحسنيين؟! أحظوة وميل ومودة وأنس من سلطان مكتمل الرجولة والعافية دون معاشرة؟ هل ترجو حقاً أن تنال منه حباً عذرياً وهو مالكها؟

على الرغم من صدودها الشديد عن فكرة المعاشرة الجسديّة، فقد وجدت نفسها تطرد شعوراً عابراً بالإهانة وهي التي افتتن بجمالها كل من رآها حتى نساء القصر. ولأمر ما لم تجد راحة في فكرة أخرى عابرة وهي أن الرجل قد يكون عاجزاً على الرغم من صورته الرجولية الغامرة. فما شأن كل هؤلاء الجواري الجميلات الفَتِيّات اللواتي يملأن القصر من كل جنس ولون! لعلّه عجز طارئ من إصابة خفيّة في حربه الأخيرة. ولكن، لماذا الذهاب بعيداً في التأويل، وأقربه كما قال هو: من يذكر قمراً بين كل تلك الأقمار؟ وإلى ذلك الانشغال بشؤون الدولة واستقبال السفراء والأعيان والوزراء والقادة. ولعلها قد بالغت في تقدير مدى تأثيرها في ذلك اللقاء الأول. وعليها منذ الآن أن تجد وسيلة للوصول إليه إذا كانت عازمة على إنجاز المهمة التي رضيت أن تضحّي من أجلها.

* * *

لم تكن وحدها من تساءل عن سرّ انصرافه عنها بعد ذلك اللقاء الأول على ما تحظى به من جمال فتان ومواهب فذة، في قصر لا يحسن ساكنوه أكثر من المراقبة والهمس والتناجي بما يدور فيه.

- لا أراك قد أدنيت إليك الجارية الجديدة. لم تعجبك هديتي؟!

تريّث لحظة قصيرة قبل أن يجيب بصوت هامس دون أن يلتفت إلى الخاتون.

- لماذا جئتني بجارية هدية؟!

تعجبت من سؤاله. فقد أهدته من قبل أخريات ولم يعلّق بسؤال كهذا من قبل.

- فماذا أهدي مولانا السلطان إذن في مناسبة عودته سالماً غانماً مظفراً؟! ليس في الدنيا من المتاع ما لا يملك أحسنه وأوفره.

- وعندي مثله من الجواري والإماء.

- نعم. ولكن الإنسان دون غيره من الأشياء لا يماثل الآخر. كل جارية صورة جديدة منظراً ومخبراً ومزاجاً. أليس كذلك؟

هز رأسه هزة خفيفة وغمغم متثاقلاً كأنه يحدِّث نفسه:

- الإنسان! ... دون غيره... ربّما.

مرت لحظة صمت وتأمّل قبل أن يفاجئها بسؤال آخر لم تألف منه مثله قط:

- ألا تغارين عليَّ حتى تهديني امرأة أخرى؟!

لو كان هذا السؤال من رجل آخر ما استوقف سامعه. ولكن أن يأتي من هذا الرجل، هذا السلطان، فقد بدا لها شديد الغرابة حقاً، ولا يتفق مع طبيعته وشخصيته وأحواله. فالسؤال ينطوي على

حاجة عاطفية غائبة، ويلابسه طيف من القلق الشخصيّ. وكل ذلك يتناقض مع حالة الاستغناء المطلق الذي يتغذى من السلطة المطلقة ويغذّيها في الوقت نفسه.

- أغار من جارية؟

- إنها امرأة أيضاً.

- نعم... ولكنها جارية. وأنا زوجك.

أخذت ترمقه بنظرات فاحصة وهو مشيح عنها في شروده. ثمّة شيء غامض قد استيقظ على غير طبيعته الصلبة الجامدة. وإنها لا تستطيع أن تحسم أمرها منه، هل تحب ذلك أم تخشاه. ولا تدري هل يقترب منها بهذه الأسئلة أم يوغل في البُعد. وإذا كانت الأسئلة السابقة قد أثارت استغرابها، فسيُرْدِف ذلك بسؤال أشد غرابة لم تتوقعه يوماً.

- هل تحبينني؟

قالها بصوت خفيض كأنه خرج على الرغم منه. ولم تكن مهيّأة بأي قدر لهذا الموقف. فكلام الحب لم يكن يوماً ليحضر بينهما. وهو الذي يملك عالماً يبدو فيه كل شيء أمراً مفروغاً منه. والكل يتنافس على حظوته ورضاه رجالاً ونساءً، فيعطي ويمنع على حدّ حسابات المصلحة أحياناً، وعلى حدّ رغبته ونزواته أحياناً أخرى، وليس الحبّ واحداً من الأسباب. ولذا لا يأمن أحد أن تدوم الحظوة، وألا تعقبها نقمة أو جفوة في أحسن الأحوال. وما كانت الخاتون لتنشد منه الحبّ الذي يكون بين الرجل والمرأة، ولا كانت

لتمنحه إياه أيضاً. كان يكفيها منه أنها زوجه وسيّدة قصره بين الحريم وأهل الخدمة والخاصّة. ويكفيها من نفسها له مطلق الولاء. وما كانت لتنسى أن زواجه بها كان أمراً من أمور السياسة. فهي ابنة أحد الأمراء الكبار من العهد الماضي الذين لم يسلّموا له بعد عزله السلطان السابق، فجمعوا عليه جيشاً من الأتباع والمرتزقة، بل استعانوا عليه بملوك الدول المجاورة، ولما طالت الحرب توصل إلى اتفاق مع أبيها تضمّن زواجه بها. ولم يكن الأمر هيّناً عليها في ذلك الحين. فهو وإن صار السلطان بقوّة السيف، فقد جاء من أغمار العامة. أما هي فمن سلالة قديمة شريفة من الأمراء وأصحاب الإقطاع. ولكن الأشدّ من ذلك أنها كانت قبل ذلك مخطوبة لأحد أبناء عمومتها، وكانت تحبه أشد الحب، حتى قُتل في إحدى معارك قومها مع السلطان قبل أن يتوصّل الجميع إلى اتفاق السلام الذي حملها إلى القصر.

- الكل يحب السلطان بالطبع!

غلبتها العبارة على نفسها، فلم تجد إلا أن تستدرك عليها:

- فكيف بزوجه وهي أولى الناس به وأقربهم إليه؟!

هز رأسه هزة خفيفة وهو يمضي خارجاً دون أن يلتفت إليها، وردّد هامساً:

- بالطبع! بالطبع.

شيعته بنظرات غائمة حائرة. هل كان ينبغي أن يكون جوابها أكثر حميمية وإن كان أقلّ صدقاً! وأي فرق سيُحدِثه ذلك على كل

حال؟ فهي وإن كان سؤاله قد أثار تعجبها وحملها على التأمّل في دوافعه الغريبة فإنها على يقين أنه لم يقصد به معناه الظاهر. فلم يكن سؤال من يطلب معرفة مجهولة أو مزيداً من اليقين. فهو يعلم من نفسها نحوه ما تعلم، وليس في قلبه منها أكثر مما في قلبها منه. ولن يقربه أو يسعده منها جواب عاطفي كاذب، ولن يزعجه أو يبعده منها جواب متحفظ كالذي نطقت به. ولكن، إن لم يكن شيء من هذا، فما الذي دفعه إلى سؤال يخالف طبيعته المألوفة، ولا يعنيه جوابه؟!

* * *

لم تُضِع قمر وقتها في انتظار أن يحدث شيء لها مع السلطان، على الرغم من تلهفها الشديد. كان يجب أن تندمج في أجواء القصر الحافل بالأسرار والوشايات والتحالفات والرغبات والمكائد، كي تشق طريقها فيه، وتعرف مفاتحه التي يمكن أن تعينها على مهمتها إذ يحين الوقت، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب.

ففي هذا العالم الضيق المعزول عن الخارج، ينخرط ساكنوه في كل ما يلابس الاجتماع الإنساني من حب وكره وصراعات ومنافسات ومؤامرات إلى جانب الصداقات الحقيقية وصور التآلف والبذل والعطاء. وقد هالها أن تكتشف أن سكان القصر يعيشون حياتين مختلفتين ظاهرة وباطنة، يتحركون بينهما دون صعوبة، وكأنهم جميعاً قد تواطؤوا على الحال دون الجهر به. ففي الظاهر يلتزم الكل القواعد المألوفة الصارمة في الحياة اليومية ويحترم التراتب في المنزلة والمسؤولية، ويحافظ على مظهر الخضوع والتوقير. أما في الباطن فقد ابتدع كل منهم لنفسه حياته الخاصة وعلاقاته

وتحالفاته التي تتجاوز عالم الحريم إلى عالم رجال الخدمة والحرس السلطاني ونُظّار القصر والخصيان الذين يتمتعون بسلطات كبيرة. وفي هذا السياق يجري تبادل الخدمات والأموال والرشوات والأسرار والأخبار! نعم الأخبار والأسرار العامة والخاصة، حتى ما يتعلّق منها بالسلطان ورجال دولته.

ففضلاً عن أن الأسرار والأخبار تمثل مادة عزيزة للتسلية والإمتاع والمؤانسة والتناجي والتهامس وخلق الإثارة والتشويق في عالم ضيق يبدو شديد الرتابة، فقد أدرك الجميع أنها أيضاً يمكن أن تكون ذخيرة مفيدة في صنع التحالفات وفي حبك المكائد أو إبطالها، وفي تحصيل الحاجات وتلبية الرغبات والنزوات. وبدا لقمر أن الحجاب الذي يحيط بحريم القصر، لا يحجبهن عن الحياة العامة، بقدر ما يحجب العيون عمّا يستطعن فعله: عيون العامة وعيون السلطان معاً! هنا عرين السلطان بكل من فيه، وهناك في الخارج رعية السلطان التي هي مادة المُلك وموضع النظر والتدبير والسياسة والرقابة. في الخارج لا يجرؤ أحد على أن يذكر السلطان بغير عبارات المدح والتبجيل خشية العيون، أما هنا في حيز القصر وحريمه فيشيع التندر همساً بطرائف مضحكة تمسّ هيبة السلطان، بعضها صحيح مما يقع داخل الغرف المغلقة، وبعضها مختلَق. والأنكى من ذلك ما يجري تناقله سرّاً من علاقات محرّمة بين بعض حريم القصر ورجاله. هل من المعقول أن تبلغ الجرأة في الخيانة هذا الحد؟ حين سألت قمر جارية متوسطة في السن بدأت تأنس بها، عن مدى صحة هذا الكلام، أفلتت ضحكة مكتومة، وقالت همساً:

- أما سمعتِ بنادرة هارون الرشيد مع إحدى جواريه، وكان عنده مائتان منهن كما يقال، وهي تناجي نفسها وتنعى حظها من غلبة الشهوة وقلة الزيارة، فتقول شعراً فاحشاً وهي غافلة عن استماعه لها، حتى قالت: «كيف يصلح طيّان ضعيف مائتي ثَلَمة؟» تعنيه بذلك وتعني جواريه.

هنا انفلتت منها ضحكة أخرى، بينما تضرّج وجه قمر بحمرة الحياء وكانت قد قرأت النادرة من قبل. وعادت الجارية الأخرى تهمس:

- ما أقل عقول الرجال! يعلّمون الجواري كل ما يصلح للإمتاع والمؤانسة والغنج وفنون الفراش وقضاء أوطار الرجال، ثم يجمعونهن بالعشرات للواحد من أهل المال والسلطان. فمهما يبلغ هذا من قوة الباه فلن يكون حظ الواحدة منه غير الليلة النادرة المنقطعة. والأرجح أن يوزّع لياليه بين عدة قليلة من محظياته، ويهجر الأخريات. يكفيه من وجودهن أن يقال: عنده كذا وكذا من الجواري، كما يقال عنده كذا وكذا من الخيل والمتاع والقصور والإقطاعات. فكيف يرجو هؤلاء الحمقى ألا يبحث بعضهن عن قضاء حاجتهن عند غيره، ولسن جميعاً على مذهب واحد من الخلق والدين، وشياطين الإنس والجن يقعدون لهنّ كل مرصد. بل قد تكون إحداهن مبغضة لسيّدها ولحالها من الرقّ. فهي لم تُسْتَشر فيه كما تستشار الحرة. وقد يكون عجوزاً بغيضاً أو رجلاً لئيماً قاسياً، فلا تأبه بحفظ ذمّته ورعاية حُرَمِه. ثم إنهم يتسمّحون مع الجارية فيما لا يتسمّحون به مع الحرة، ولا يغارون عليها غيرتهم على الأخرى.

كيف وهم يبيعونها ويهدونها إن شاؤوا، إلا أن يعشقها سيدها فيغار عليها غيرة العاشق الذي لا يصبر عن معشوقه. هكذا تجري الأمور. فكيف تعجبين؟!

أطرقت قمر رأسها متفكّرة وقد وقع كلام صاحبتها في موقع خاصّ من نفسها، وهي أجدر الناس بأن تعي دواعي البغض للسيّد وحال الرقّ. ولكن... الخيانة!! هذا ما لا يمكن أن تسوّغه فطرتها وخلقها. وحين بلغت هذا الموضع في تفكيرها، تنبهت للمفارقة. ألا ينطبق وصف الخيانة أيضاً على خطتها المبيّتة. أم أن الخيانة الممقوتة في هذه الظروف تنحصر في المعنى المخصوص الذي جرى الكلام عليه!

لا، ليس في مهمتها وتدبيرها مع علي بن الحسن معنى الخيانة. فهي ليست كأيّ جارية أخرى هنا. إنما هي هنا عين أصحاب الحق المظلومين على من قهرهم وأذلّهم. أليست الحرب خدعة؟ وهي هنا في مهمة من مهمات الحرب ضد طاغية لا خلاف على عداوته. وإن كان ثمة ما ينبغي أن تخشاه من لحاق صفة الخيانة بها، فهي أن تفرط في مهمتها فتخون قضية مشروعة لشعب مقهور بجملته، فضلاً عن خيانة الرجل الذي تحب حقاً، ويوشك أن يقود ثورة قد تعرضه للهلاك إذا أخفق التدبير. أما ما يجري في القصر من خيانات لا تحركها إلا المصالح الخاصة والرغبات والشهوات المحبطة، فعلى ما فيها من خسّة يأباها الطبع السليم، فيمكن أن تعينها في مهمتها في تحصيل الأخبار والخطط ونقلها في أجواء الرقابة المتراخية تلك. ولكن ذلك لا يغني عن التقرّب إلى السلطان والفوز بحظوته.

فكيف السبيل إلى ذلك وقد تجاهلها أو نسيها بعد ذلك اللقاء الأول، وقد ظنت أنها بلغت من نفسه ونظره ورغبته مبلغاً خاصّاً!

* * *

كان يوماً ربيعيّاً رائعاً حين ضج القصر بالحركة والأصوات والحيوية في جو أشبه بالجوّ الاحتفالي. فاليوم يستطيع الجميع أن يشاهد السلطان يلعب الكرة والصولجان مع نفر من حاشيته في الميدان المعدّ لهذا الغرض داخل حرم القصر. أما الحريم ففي وسعهنّ المشاهدة من على السطح المشرف.

صعدت قمر فيمن صعدن إلى السطح. كان اللاعبون وسائر الحاشية قد سبقوا إلى الميدان ومحيطه في انتظار وصول السلطان. وما هي حتى وجدت قمر نفسها تندمج إلى حدٍّ ما في جوّ الترقب والإثارة. ولكنها سخرت في نفسها من كلام الإماء الأخريات عن تفوق السلطان في هذه اللعبة وفوزه الدائم على الآخرين. وهل يجرؤ أحد على مغالبة السلطان حقاً وصدقاً حتى محاولة الفوز عليه؟!

لا بدّ أن تكون النتيجة محسومة سلفاً، مع ذلك يبقى على اللاعبين أن يؤدوا عرضاً مقنعاً لا يغيّر النتيجة المحتومة ولا يقضي على جوّ الإثارة والمنافسة فتفسد اللعبة تماماً. فكيف السبيل إلى تحقيق هذه الموازنة الدقيقة؟ كان هذا وحده كافياً لإثارة اهتمامها وتشوقها للمشاهدة.

لم يطل الوقت حتى أقبل السلطان على فرسه يحيط به بعض أهل الخدمة. كان يرتدي ثياباً مناسبة للعب: سروالاً وقميصاً خفيفاً

ينفتح من أعلاه على صدره العريض الذي يخطه الشعر، فبدا آية من العنفوان والفتوة. وما أن برز في المكان حتى انطلقت زغاريد الحريم من سطح القصر وشرفاته، بينما انحنى له الفرسان على خيولهم. ولم تتوقف الأصوات حتى رفع صولجان اللعب مؤذناً بالبدء.

كان ذلك أول عرض من هذا النوع تشهده قمر. وما لبثت حتى اندمجت تماماً في المشاهدة والمتابعة وقد بدا لها أن اللاعبين جميعاً يبذلون قصارى جهدهم ولا يتحفظون في استعمال مهاراتهم الرائعة. أما تفوّق السلطان على الرغم من ذلك كله فلم تجد ما يدعوها إلى أن تنسبه إلى تراخي الآخرين على سبيل التأدّب والنفاق والمجاملة.

لا بد أن يكون تفوّقاً مكسوباً بحق وعدل، لأنه الأفضل والأقوى والأعظم مهارة، فأي رجل من اللاعبين يتمتع بمثل جسمه وعضلاته وعنفوانه. ولذا فقد أدهشها حقاً ما حدث بعد مرور بعض الوقت على اللعب حين بدا لها أن المنافسة تزداد احتداماً. فجأة توقف السلطان وقذف بصولجانه إلى الأرض وصاح صيحة منكرة:

- صبيان!

توقفت الحركة على الفور، وراناَ الصمت المهيب، وشَخَصت الأبصار إلى السلطان وقد اكتست الوجوه بملامح الصدمة والرهبة. ما الذي حدث؟ تساءل المشاهدون والمشاهدات في أنفسهم دون همس. صاح السلطان من جديد:

- صبيان!

أطرق الفرسان رؤوسهم وانكسفت أنظارهم بينما أخذ السلطان يجول بفرسه أمامهم.

- ما ظنكم بي؟ هاه! أهذا ظنكم بسلطانكم. يطلب فوزاً كاذباً بسطوة السلطان، فإن فاز عليه غيره بمهارته فقد تجرّأ عليه وأهانه! تهدونني فوزاً غير مستحق لأخرج راضياً عن نفسي وعنكم؟! لبئس ما تحكمون. أما علمتم أني أفضل أن يهزمني ندٌّ قادر، على أن أفوز على خصم أخرق عاجز!! فإن كان هذا حدّ قدرتكم حقاً وغاية جهدكم فقد أسأت اختيار أقراني في اللعب. وصار عليّ أن أستبدل بكم من هم خير منكم مهارةً وصدقاً.

لم تدرك قمر صحة قوله إلا حين استؤنف اللعب، فرأت من مهارات اللاعبين هذه المرّة ما أزرى بجهدهم السابق، ورأت من مهارة السلطان في المقابل ما لم تحسب أن أحداً من الفرسان يقدر عليه. فلا يكافئ ثباته على ظهر الجواد إلا رشاقته وخفته به، فينثني به أنّى شاء ومتى شاء كما ينثني بجسده، يردعه بحركة سريعة ثم يطلقه بالسرعة نفسها، فلا تدري هل يتصرّف الجواد بذاته أم بإرادة راكبه، أم أنه يقرأ أفكار صاحبه فيتحرك على وفقها دون توجيه حسّي، فلا ثمة فاصل مهما يدقّ بين الإرادتين. وما هي حتى اندمج الراكب والمركوب في وعيها، فبدا لها أنهما مخلوق واحد من عالم الأساطير المرويّة: نصفه رجل ونصفه حصان. وما هي حتى استوعبت بذكائها مجريات اللعب وخططه متقمّصة أساليب السلطان وطرقه ومهاراته، فكأنها تجري وتنفتل وتنحني معه بالصولجان نحو الأرض لتضرب الكرة، ثم تتجه فوراً إلى الموضع المناسب التالي حسب المقتضى الذي لا تدرك العين غير المدرّبة دواعيه حتى ترى

مآله التالي في سير المباراة. وسرّها أن تصيب في الكثير من توقعاتها. ثم تنبّهت إلى أن كل حواسها متحيّزة للسلطان، فيضج قلبها بالفرح مع كل إصابة باهرة، وتنحبس أنفاسها مع كل هدف جديد يسعى إليه حتى يتحقق فتنطلق أنفاسها مع صيحة فرح مكتومة، وتشعر بالخيبة والإحباط كلما نجح لاعب آخر في تحقيق إصابة فتغالب صيحة ساخطة، ولكن هذا قليل على كل حال. وحين تنبهت إلى ذلك من نفسها، غامت صورة الملعب في بصرها، وارتدت إلى دواخلها المشوشة تبحث فيها عن نفسها في غيمة من الغبار تماثل تلك التي تثيرها حركة الخيول في ميدان اللعب. كيف لها أن تنحاز إلى العدوّ الذي ما جاءت إلى القصر إلا لتعين على دحره وهزيمته! كيف وجدت نفسها في هذا الموقف منساقة إلى الإعجاب بمهارات الرجل، وهي بعض المهارات التي مكّنته في ظروف أخرى من البطش والطغيان حتى كانت هي إحدى ضحاياه التي لا تطلب أكثر من الثأر منه؟ كيف ترجو الآن فوزه وهي التي لا ترجو إلّا هلاكه في غير ذلك؟!

كادت تزدري نفسها حين وصلت إلى هذه النقطة من التفكير والتأمّل. هل صدق الرأي الشائع في انجراف المرأة وراء عواطفها المتقلّبة، وفي ضعفها الذي يسوقها إلى التعلّق بالقويّ وإن كان ظالماً، وإلى ازدراء الضعيف وإن كان وديعاً ودوداً؟! هل يكون في الإنسان بعض ما في غرائز السباع الكاسرة؟ فقد قرأت في بعض كتب الحيوان أن ذكور السّباع تقتتل على عائلة من الإناث أشبه بالحريم، فإذا فاز الذكر الجديد الدخيل على الذكر المقيم وغلبه على إناثه، عمد من فوره إلى قتل أشبال الذكر السابق الطريد أو القتيل، وهم

كذلك أشبال الإناث اللواتي حاز عليهن. وقد علم بغريزته أنهن لا يدخلن في طور النزو والمعاشرة ما دُمن يرضعن أشبالهن من السابق. فإذا تم له قتلهم، أظهرنَ الخضوع والقبول، ورضين به حامياً وأباً لأشبال جدد من نسله. فالمتغلب القوي، وإن بطش، أقدر على حفظ حماه وإنائه ونسله! أما المغلوب فقد تغلّب عليه ضعفه أمام الأقوى، ولو قدر لما كان أقلّ بطشاً!

ولكن لئن صحّ هذا في عالم السباع، فهل يصحّ منه شيء في عالم البشر؟ أين الحق والباطل إذن؟ أين الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول بغير حق، ظلماً وعدواناً؟! أم أن ذلك من طبائع الدول والملوك خاصةً، إذ يستوي العدوّان في طلب الغلبة، فيفوز الأقوى وينهزم الآخر. فلا الغالب بأسوأ من المغلوب، ولا المغلوب بأفضل من الغالب. ثم يروي كل منهما تاريخه على وفق حاله، فهذا يرى تغلّبه حقاً ومجداً مكسوباً، وذاك ينسب هزيمته إلى عدوان الآخر وإلى ابتلاء الأقدار التي لا يحيط بها إلّا مقدر الأقدار، على أن الحياة دول والحرب سجال. وربما نسبها إلى تقصير الآخرين من أهل دولته أو إلى خيانة المأجورين والمرتزقة منهم! فأمعن في البطش والتنكيل في قومه، ليواري سوأة هزيمته أمام عدوه وعدو قومه الذين توزعت دماؤهم بين غزاة الخارج وطغاة الداخل.

أفاقت من شرودها الموجع وحيرتها المرعبة على زغاريد الحريم احتفالاً بإصابة أخرى رائعة من السلطان، وبقدر ما أزعجها أن تكون غفلتها قد فوتت عليها مشاهدة الضربة المثيرة، فقد راعها من جديد أن حوارها السابق مع نفسها لم يمنعها من الانخراط في البهجة. فليكن إذن. هذه على كل حال ليست ساحة من ساحات

المعارك. إنها هو ميدان للعب تتجلّى فيه مهارات الفروسية في أسمى صورها. وفي هذه الفسحة القصيرة يتجرّد اللاعبون من صفاتهم العامة الأخرى، فلا ملك ولا مملوك، ولا جلاد ولا ضحية، ولا ظالم ولا مظلوم، ولا قاتل ولا مقتول. فلا ضير أن يتجرد المشاهد كذلك من أحكامه الأخرى مؤقتاً ليتمتع بمشاهدة هذا العرض البديع الذي يتنافس فيه اللاعبون بمحض قدراتهم ومواهبهم البدنية والذهنية. ولا تكتمل المتعة والتشويق في مشاهدة مباراة من هذا النوع إلّا بالانحياز إلى طرفٍ ما لأي سبب من الأسباب، وإلّا فكيف تتقلّب المشاعر بين الرجاء والخوف، وبين البهجة والخيبة وتنشدّ القلوب والأبصار على طول المباراة! ولكن، لماذا تنحاز إلى السلطان على ما نفسها منه في غير هذا الموضع؟! ربّما لأنها لا تملك سبباً للانحياز إلى غيره، وهم على كل حال من رجاله ومنافقيه. وهو على كل حال أحسنهم سمتاً ووسامة ومهارة. وحتى لو كان فارساً مجهولاً لانماز عنهم فوراً وانشدّت الأبصار إليه دون غيره.

فجأة رفع صولجانه من جديد موقِفاً اللعب. ماذا الآن؟ رانَ الصمت مرة أخرى، ولكن الترقب لم يطل. أشار السلطان إلى أحد الفرسان أن يتقدم إليه. ثم ترجّل عن جواده أمام دهشة الجميع. همّ الفرسان الآخرون بالترجّل أيضاً، إذ لا يصح في الآداب السلطانية أن يترجل السلطان بينما يبقى الآخرون على خيولهم. ولكنه نهاهم بحركة من يده. ثم أشار للفارس الذي دعاه إلى التقدّم نحوه بأن يترجّل دون غيره. فازدادت حيرة الآخرين.

- هاك جوادي فامتطه، وأعطني جوادك.

تريّث الفارس حرجاً.

- سيدي. لست جديراً بهذا الشرف.

وإذ رأى نظرة السلطان الحازمة لم يسعه إلا الامتثال من فوره. أدركت قمر المعنى قبل غيرها. فغلبت عليها ابتسامة إعجاب عريضة. لحظتها الجارية الواقفة إلى جوارها فهمست:

- ما أراد بذلك؟

- هذه لعبة فروسية. فارس وفرس. فربما ذهب البعض إلى نسبة التفوق أو بعضه للفرس!

ما إن استؤنف اللعب حتى بدّد السلطان كل شك مضمَر. فأبدى من المهارة ما زاد به على أدائه السابق. وانطلقت الزغاريد مدويّة من جملة الحريم كما لم تدوِّ من قبل. وأخذ الحماس بأحد العبيد، وكان معه طبل، فقرعه بشدّة. وفجأة حدث ما لم يتوقعه أحد، بل ما لم يدركه النظارة إلّا بُعَيد وقوعه، فقد حدث كلّه في لحظة خاطفة. أجفل الجواد الجديد بالسلطان ثم انتصب على قائمتيه الخلفيتين، وبدا أنه استعاد طبيعته البريّة الجامحة التي تقاوم ترويضه والحمل عليه، فبدأ ينتفض بجسمه في قفزات قصيرة سريعة قوية متردداً بين الارتفاع بمقدمته والارتفاع بمؤخرته والميل على جانب ثم على الآخر مصرّاً على التخلص من حمله. وأخيراً تغلّب جنونه على جهود السلطان الخارقة للسيطرة عليه، فألقى بنفسه وبراكبه على أحد جانبيه. وبينما ترجّل الفرسان الآخرون على عجل وهرعوا إلى موضع السقوط، قام الجواد وانفلت مبتعداً يصهل ويهز رأسه وعنقه يميناً وشمالاً كأنه يحتفل بفوزه! وفي هذه الأثناء ضاعت

شهقة قمر المرتعبة بين صرخات الجواري الأخريات وضجيج الفرسان والعبيد وصهيل الخيول. وعلى غير تمعّن أو تدبير وجدت نفسها تركض نحو السلم فتنزله بقفزات سريعة، وما هي حتى عبرت من البوابة وتابعت الركض نحو ميدان اللعب حيث كان الفرسان والعبيد وأهل الخدمة الحاضرون ينكبّون على السلطان الملقى على الأرض فيحجبونه عن نظرها وهم في حالة شديدة من الاضطراب والفوضى والتدافع. ولا يتضحّ من أصواتهم وهمهماتهم المختلطة إلا القول: «فداك أبي وأمي يا مولاي». وبدا أن بعضهم يحاول رفعه ثم يتوقف إذ يغلب الألم على هيبة السلطان فيكفهم بحركة من يده مع حشرجة مكتومة. ثم فاجأهم صوتها وهي تصيح بلهجة آمرة:

- أوسعوا، لا أبا لكم!

لم تمنع الدهشة أحد مقدّمي الخصيان من اعتراضها بنبرة حازمة:

- ما وجودك هنا أيتها الجارية! هيا... عودي... ليس هذا مكان الحريم!

دفعته بيدها دون تردد:

- ولا مكان لمن لا يدري كيف يفعل، لا أراكم تحسنون غير القول: فداك أبي وأمي، فداك أبي وأمي. ثم تنكبون على سلطانكم فتحجبون عنه الهواء حتى ينكتم نفسه. وتحاولون رفعه وأنتم لا تعلمون موضع إصابته، فلربما زدتم الأمر سوءاً... أما أنا فقد تعلمت بعض الأمور.

كان في صوتها وكلامها من الثقة ما جعلهم يمتثلون. فأوسعوا في المكان، بينما تقدّمت نحو السلطان الذي بدا أنه يغالب ألماً شديداً كما تدلّ انقباضات وجهه وجفنيه. جلست أولاً خلف رأسه:

- مولاي. افتح عينيك ما استطعت، وارجِع ببصرك إليّ إن استطعت.

فعل كما سألت. ثم زحفت إلى أحد جانبي رأسه. وسألته أن ينحرف إليها ببصره دون أن يحرك رأسه، وفعلت مثل ذلك عند الجانب الآخر. ثم سألته أن يحرك رأسه قليلاً نحوها إن استطاع، ففعل.

ثم ضغطت على جانبي عنقه. وانحنت برأسها فوق عينيه ليراها بوضوح. وسألت سؤال الطبيب الذي يختبر حال مريضه:

- من أنا يا سيدي!

تلبّث لحظةً قبل أن يجيب بصوت خفيض يغالب الألم.

- قمر!

قالها بنبرة بين التقرير والسؤال. وقد تقصّد ذلك ليوحي بعدم الاهتمام ويقلل من معنى حضورها في ذاكرته على الرغم من لقائه اليتيم بها من قبل! فحتى وهو في هذا الوضع الاستثنائي، لا يكف عقله عن التقدير والتدبير. وهذا على أي حال ما كانت تريده بأسئلتها. والآن وقد اطمأنت على سلامة الرأس والعنق والدماغ لم تقاوم رغبتها في المتابعة بسؤال آخر لم يكن خالص البراءة، وإن حافظت على نفس النبرة الجادّة لمن ينظر في حال المصاب:

- تسأل أم تجيب يا مولاي؟ فأي قمر من أقمار القصر؟

وحين أدركت من نظرته الفاحصة أنها تمادت قليلاً، أردفت من فورها:

- لا بأس عليك يا مولاي. إنما أردت التحقق من حضور الرؤية والوعي. الرأس والعنق والبصر بخير. وهذا هو الأهم. أما الكسور، إن وُجدت، فيهون جبرها بإذن الله.

قامت ببعض الفحوص الأخرى السريعة للأطراف والجذع. وبدا أنها تعرف جيداً ما تفعله، أمام دهشة الحضور. ثم قررت أن المشكلة في الكتف اليسرى، ورجحت أن يكون عظمها قد انزاح من موضعه. حدث ذلك كله في وقت قصير، وكان بعض أهل الخدمة قد وصل بالمحفة. فأرشدت الرجال كيف يرفعون السلطان عليها بأقل الأضرار والأوجاع. وكان بعضهم قد جرى لإخطار الطبيب الذي أدرك السلطان بعد أن ألقي على سريره. وكان قد استعاد تنبهه تماماً على الرغم من الألم الشديد. وأكد الطبيب صواب تشخيص قمر لانزياح عظم الكتف. وعندما علم تفاصيل ما حصل لم يخفِ إعجابه بتصرّفها. وكانت حاضرة في مخدع السلطان في تلك اللحظة مع زوجه الخاتون وبعض أهل الخدمة. فما كان لأحد بعد الذي بدر منها أن يصرفها عن الدخول إلى حجرة السلطان بالمحفة التي نُقل عليها، إلا أن يشير السلطان نفسه بصرفها بعد ذلك. ولم يفعل حتى الآن. وعندما علم الطبيب تفاصيل ما وقع، لم يخفِ إعجابه بفهمها وتصرّفها.

- من أين لك هذا العلم يا...

- قمر يا سيدي الطبيب. قد نظرت في بعض كتب الطب. وكانت حوادث المرض والسقوط تقع في دار الإماء والعبيد عند صاحبها أبي حسّان... فأحب أن أرقب الأطباء في عملهم... وقد أعينهم في بعض حاجاتهم. ثم حين رأوا ذلك مني وأعجبهم عملي صاروا يستأذنون أبا حسّان في أن أعينهم في البيمارستان بين الفينة والأخرى، إذا كثر عندهم العمل، لا سيما تمريض النساء. وكانوا يعطونه بعض الدراهم في المقابل، أعني مالكنا أبا حسّان. ذلك الرجل! لم يكن ليعطي شيئاً بلا مقابل.

كانت الخاتون تنصت وقد اكتسى وجهها بملامح غامضة. ودافعت في نفسها شعوراً بغيرة فاجأتها. فلا بأس في أن يتمتع زوجها السلطان بمن شاء من الجواري، على أن تقتصر المتعة على المعاشرة العابرة والرقص والغناء.

أما الطبيب فتابع الكلام بصوت خفيض متقطع وهو ينحني على السلطان ويتحسس كتفه المصابة بعناية ورفق:

- جُلّ الناس على ذلك المذهب في هذا الزمان يا... قمر! على أن ذلك الرجل قد أحسن تعليمك وتأديبك كما يبدو... حتى صرت أهلاً للجائزة العظيمة... أعني أن تكوني في حريم مولانا الـ...

لم يتم العبارة إذ انطلقت صرخة ألم حادّة وقصيرة من السلطان اهتز لها الحضور، بينما أطلقت قمر شهقة تلقائية وتسمّرت أنظار الجميع على السلطان وطبيبه. كان السلطان ينفخ نفخات سريعة متقطعة. ثم تبيّن الموقف إذ تحدث الطبيب محافظاً على هدوء صوته:

- لا بأس عليك يا مولاي. قد أعدت العظم إلى موضعه.

أخذ السلطان نفساً طويلاً قبل أن يُسمَع صوته لأول مرة منذ وقوع الحادث.

- عَدمتُك. أفما كنت تنذرني أولاً!

- ترقب الألم يزيده ويطيله يا سيدي. وقد يتصرّف البدن في هذه الحال على غير إرادة صاحبه فينقبض ويشتد ويرتد خشية التالي. فيزيد الأمر سوءاً.

- ما هذا عنيت!

قالها وهو يومئ بحدقة عينه إلى الحضور.

- ما حاجة هؤلاء إلى أن يشهدوا ذلك.

في نفسه كان يعني قمر على نحو خاص.

ابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة، وانحنى على السلطان هامساً:

- السلطان أقدر على أجساد الآخرين، منه على جسده يا مولاي!

ثم انتصب قائماً وتابع بصوت مسموع:

- سأثبت الكتف بضماد كيلا يتحرّك من موضعه. ويحسن أن تلزم الفراش يومين أو ثلاثة يا سيدي. فإذا لزمتك الحركة أو لزمك القيام لبعض حاجتك فيحسن أن يكون ذلك على طريقة مخصوصة سأبيّنها. وكذلك تغيير الضماد إذا احتجت إلى نزعه للضرورة ولم أكن حاضراً. وقد رأينا أن قمر خير من يعين على ذلك ويمرّضك في

غيبتي. فلو أذنت لها أن تقترب يا مولاي لترى عملي وأبيّن لها الطريقة.

حين اقتربت قمر حتى صارت إلى جانب السرير، التقت عيناها بعيني السلطان في نظرة عميقة وإن كانت قصيرة. أخيراً ألزمت الحاجة الطارئة قربها منه، وهو ما كانت تريده وتخشاه في الوقت نفسه. وهو أيضاً ما كان يرغب فيه ويماطله في الوقت نفسه! وهل يماطل السلطان رغبةً ما وهو القادر عليها؟

لقاؤه الأول بها وما دار فيه من حديث، بعث في وجدانه شعوراً لم يختبره إلا في ميعة صباه حين لم يكن شيئاً مذكوراً، ولم يكن له من عدّة الغزل إلا قلبه ولسانه وأحلامه ومظهره وفتوته وادعاءاته، وكان عليه أن يغالب بها جميعاً ليفوز بقلب فتاة مخصوصة تملك إرادتها فيه وفي غيره بقدر ما يملكها، فتُقبل أو تدبر اختياراً بسلطان العشق وحده. وبين هذا وذاك نشوة الفوز أو خيبة الإخفاق. هنا يتجاور ضعف الإنسان وقوته. وذلك ما يحفظ في الإنسان شعلة الحياة. وأين معنى الفوز ولذته إذا انعدم احتمال الإخفاق؟ وأين معنى القوة إذا انتفى معنى الضعف؟! وأين دهشة الجديد إذا خلت الحياة من المخاطر والترقّب والمدافعة، وصار المستقبل يقيناً كالماضي بضمان السلطة الطاغية؟!

نعم، بعثت هذه الفتاة التي لا تملك نفسها تلك المشاعر القديمة في نفسه، وهي تتحدّث عن الحب وعن سلطان القلب الذي لا يقدر عليه السلطان إلا أن يفلح في استمالته بنفس عدّة الغزل القديم المركّبة في الفطرة التي فطر الله عليها الناس، والفطرة هي الأصل الجامع الذي يجتمع فيه الخلق ويستوي فيه الناس، قبل

أن تميّز بينهم أسباب السلطان والمال والأحساب والأنساب التي اصطنعها الناس ثم صارت تصنعهم على وفق قوالبها الصارمة. فهي كالأوثان التي ينحتها عبدة الأوثان، حتى إذا فرغوا من نحتها سجدوا لها، فصار المصنوع عندهم صانعاً.

في ذلك اللقاء الأول وبعده، حاول السلطان أن يدافع هذه المشاعر والمعاني. وربما بدا أنه أفحمها في جداله وردوده حتى أسكتها. ولكنه لم يُسكِت فؤاده وعقله الذي ظلّ منشغلاً بها وألزمه أن يرى فيها جانب القوة التي يحجبها الضعف، وأن يواجه في نفسه ما عدّه ضعفاً تحجبه القوة. وقد فاجأه أن هذا البوح الداخليّ لم يضق به صدره، بل خلق فيه شعوراً لذيذاً لم يختبر مثله منذ أمد طويل. وتفهّم لأول مرّة تلك القصص التي تسردها كتب الأخبار عن عشق بعض الخلفاء والسلاطين العظام لواحدة مخصوصة من جملة جواريهم، حتى كان أحدهم لا يصبر على فراق جاريته المعشوقة، وربّما دلّت عليه بنفسها، فتغاضبه ويجتهد في استرضائها، فإن لم تُجد الهدايا الثمينة، فاضت قريحته ببعض الشعر يبث فيه من أشواقه ولهفته، فإن أعجزه الشعر من نفسه، صوّر حاله معها لأحد شعرائه المقربين لينطق عنه ببعض الأبيات التي يرجو أن يلين قلبها بها. وهان عليه التذلّل لها وهو الذي ما زال يذلّ خصومه وأعداءه، ولربما أذلّ ندماءه وأصحابه أيضاً.

كان السلطان عبدالله بن سعد يرى في هذا عجباً. كيف يغالب سلطان من السلاطين شوقاً لجارية هي ملك يمينه؟ كيف تملكه وهو المالك؟ كان هذا حتى رأى هذه الجارية واستمع إليها، فأخرجته من حيّز السلطان إلى حيّز الإنسان، بينما أخرجت نفسها من حيّز الرق إلى حيّز الإنسان سواء. ثم انتهى في تفكيره إلى موازنة

مريحة: إن خضوع السلطان العظيم لجارية يعشقها دليل قوة لا دليل ضعف، فهو آمن في سلطانه من مظنة الضعف، إذ يرضى بأن يخضع لقواعد العشق وإملاءاته في ذلك الحيّز الخاص، ليفوز بأكثر من متعة الجسد وقضاء الشهوة مما يقدر عليه كل صاحب ملك ومال وسلطان، يستوي في ذلك الفتيّ الوسيم ذو الأخلاق الكريمة والمناقب الرفيعة، والعجوز القميء القبيح الكريه الأبخر.

لذلك كلّه اختار السلطان عبدالله أن يمتنع عن دعوة جاريته الجديدة إلى مخدعه، أو غشيانها في مخدعها. بل آثر أن يباطل نفسه في دعوتها لغرض المؤانسة والسماع على الرغم من رغبته الشديدة، لعلّه يثير بذلك لهفتها، فتبادر إلى محاولة الوصل، أو تتطلع إليه على شوق وقلق من تأخره، فإذا وقع جادت نفسها لتجود نفسه.

وتلك بعض الطرق القديمة في استمالة الألفة والأليف. ثم وقع هذا الحادث الذي جمع بينهما، فأعفاها من المحاولة التي همّت بها، لولا أن ردعها القلق والخوف، وأعفاه من الدعوة التي همّ بها بعد أن مَطَلها هذه الأسابيع المنصرمة.

- ألا تقولين: فداك أبي وأمي يا مولاي، كما يقول الآخرون؟

كان هذا أول ما خاطبها به حين خلت حجرته من الآخرين، وبقيت وحدها عنده لتعتني به كما نصح الطبيب.

- وكيف يفديك ميت يا مولاي؟

لاحَ على وجهه طيف ابتسامة.

- إنما يقولها الناس كناية عن الولاء والتبجيل والمودة. فلا تُحمَل على ظاهر معناها.

- بل أقول خيراً منها: فداك نفسي يا مولاي.

رمقها بطرف عينه وقال:

- حقّاً!! أليست هذه أيضاً كناية عن المعنى نفسه، لا يراد بها ظاهر المعنى؟!

- ربّما... وربّما صدق قائلها على الوجهين: التبجيل بالعبارة المألوفة، وظاهر المعنى، فكان ممن يفدون بأنفسهم حقاً إذا حزب الأمر.

همّ السلطان بأن يعلّق، ولكنها تابعت:

- و... ربما لم يصدق القائل في أيّ من الوجهين. فلا هو صادق في مودته وولائه، ولا هو مستعد حقاً أن يفدي المخاطَب بنفسه. إنما هي عبارة يُلزم بها حال الأدنى من الأعلى، والأضعف من الأقوى، على حدّ الخطاب المتعارف. ومناط هذه الاحتمالات في توجيه الكلام وحقيقة المعنى، هو دخيلة القائل، وهذه لا يعلمها حق العلم إلا الله، ثم وجه العلاقة بين القائل والسامع. فإن قالها المتحابون على غير منفعة، فيرجح صدقهم، كأن يقولها الوالد لولده والولد لوالده، والمحب لمحبوبه.

شرد ببصره نحو السقف، ومرّت لحظات صمت، قبل أن تسمع صوته من جديد دون أن يتحوّل ببصره. كان خافتاً هذه المرّة لا يكاد يُسمع، وكأنه يخاطب نفسه.

- وأين أنت من هؤلاء إذ تقولينها؟

تظاهرت بعدم السماع. وآثر من جانبه ألا يكرر السؤال.

4

مكثت في تمريضه وخدمته نحو أسبوعين تغيّر له الضماد وتساعده على النهوض من فراشه كلما اقتضت الحاجة، بالطريقة التي تجنبه الألم. وكان يجب أن تعينه على تغيير ثيابه في كل يوم. وقد أدهشها وسرّها في آنٍ أنه كان إذا بلغ تغيير سرواله صرفها من الحجرة ليفعل ذلك مختلياً بنفسه.

وكانت تدلك له ساقيه وذراعيه وصدره بالطيب. وكانت تلك أول مرة تقترب فيها بهذا القدر الحميم من جسم رجل. فرأت من جماله وتناسبه وقوته فوق الذي أعجبها منه وهو في كامل حلّته. فالثياب قد تخفي بعض العيوب، ولكنها أيضاً قد تخفي بعض الجمال والفتنة في الرجل والمرأة سواء. أما هذا الجسد فلا عيب فيه. بل إن آثار الجروح من المعارك قد زادته جمالاً وفحولة. لا يليق جسم بهذه الروعة بسلطان طاغية.

ليته كان قبيحاً ليكون صورة من مخبر صاحبه! فإن لم يكن، فليت مخبر صاحبه كان جميلاً كمظهره! كيف يمكن للشيطان أن يتقمص صورة فاتنة كهذه؟ وقد راعها من جمال صورته أن شغلها لبعض الوقت عن حكمها في صاحبه. فلبثت تدافع إعجابها به، وتذكّر نفسها بأسباب بغضها وبغض الناس له، والغاية التي حملتها معها إلى القصر، حتى كادت تشتم نفسها في سرّها. ها هي تُمرِّض

الرجل الذي ترجو بواره، وتحرص كل الحرص على أن تجنبه الألم ما استطاعت، وتتأمّل بإعجاب طاغٍ جسده البديع الذي تدبّر لدماره. وذلك كله ما لم تهيّئ نفسها له ولم تكن لتتوقعه حين خضعت لخطة صاحبها المعلم عليّ. لماذا يجب أن تكون الحياة معقدة ومحيّرة هكذا؟ وفي لحظة ما شعرت بالخجل من نفسها.

وتقلب خجلها بين نقيضين: الخجل من إعجابها الأنثوي بمظهر رجل لا ينبغي لها إلا بغضه والتدبير عليه، والخجل من إضمار التدبير على رجل تسهر الآن على تمريضه والعناية به حتى يبرأ ويسترد قوته، وأسلمها نفسه تقلبه كيف تشاء دون غيرها من أهل القصر، بل تطور الأمر إلى أن تؤنسه بطلب منه. فسألها أن تأتيه ببعض كتب النوادر من مكتبة قصره العظيمة، لتقرأ له. فكانا يتحاوران ويتفقان أحياناً ويختلفان أخرى فيما يعرض لهما من تلك الكتب. أما النوادر الطريفة، ولا سيما قصص الحمقى والنَّوْكى والمجانين والممرورين مما تحفل به بعض تلك الكتب، فلم يملكا معها إلا الضحك الذي أخرج السلطان عن وقاره وأخرجها عن تحفظها المقصود معه. وربما غلبها الضحك قبل أن تتمّ النادرة، فضحك بضحكها واستعجلها التتمة وهو يراقب وجهها الجميل الذي زاده الموقف جمالاً ودلالاً. وفي إحدى المرات حين فرغت من قراءة أحد الفصول وجدت أمامها فصلاً في المجون. وكان هذا مألوفاً في الكتب، حتى في أمهات الكتب التي ألّفها كُتّاب مرموقون كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي فقلبت الصفحات على عجل إلى الفصل التالي. وهنا فاجأها بالقول:

- لِمَ تركت تلك الصفحات:

تضرّج وجهها بحمرة الخجل، ما زادها جمالاً. وآثرت التحول بوجهها عنه وهو يرمقها بنظرة سابرة. وإذ تجاهلت الإجابة، تحوّل هو ببصره عنها:

- باب في المجون، أليس كذلك؟

مرّت لحظات صمت قصيرة، قبل أن يتابع دون أن ينظر إليها:

- وأنت أكثر تحفظاً وتأدّباً من صاحب الكتاب، وقد كان في زمانه من أهل الرأي في الدين والكلام؟!

- كان رجلاً يا سيدي.

- تعنين حياء المرأة في المقابل؟! ولكنك جاريتي. فلو قرأتِ من ذلك عليّ، فإنما تقرأين على من يحلّ له منك أكثر من ذلك! أم أقول: يحلّ له منك بالفعل ما يرد في تلك النوادر بالرواية والكلام! وليس معنا هنا من يشهد ويسمع فيوجب التستر والحياء والخفاء! أليس كذلك؟

تعاظم خجلها حتى ضجّ به جسمها كله، وامتلأ رأسها بالطنين، وشعرت كأن الدم يوشك أن يتفصد من وجهها، وأشاحت بوجهها أكثر لتتجنب نظره الذي عاد يسلّطه عليها. وردّد السؤال:

- أليس كذلك؟ أجيبي!

بدا أنه شديد الإصرار، ولا مناص من الردّ. وأخيراً أجابت بصوت خفيض متردد مخنوق:

- هو كما قلت يا سيدي. ولكن...

أطلق ضحكة مفاجئة قوية قبل أن تتم كلامها...

- ولِمَ الاستدراك على ما لا جدال فيه... «ولكن» ماذا؟

- صحة الكلام تفحم السامع، ولكنها لا تلزم الحِسّ والشعور. أليس الحياء شعبة من شعب الإيمان يا سيدي!

- الحياء فيما يوجب الحياء نعم...

تريّث لحظة أخرى، ثم تابع:

- وإلّا، فبأي ذريعة خلوت معي في هذه الحجرة وأعنتني في خلع ثيابي، ورأيت مني لا ما تراه إلا الزوجة من زوجها والجارية من صاحبها... ودلكت بدني بالدهن والطيب؟ ثم إذا أغمضتُ عينيّ وظننتِ أني ذهبت في النوم تسمّرت عيناك عليّ تتفحصينني من رأسي إلى أخمص قدميّ!!

أما هذه فما كان لها أن تتوقعها فنزلت عليها كالصاعقة، وبغير وعي أو تدبير وجدت نفسها تغطي وجهها براحتها. وتمنت لو تختفي من المكان... ما هذا الرجل الذي لم يكشف لها من ظاهره أكثر مما كشف من باطنها! ولماذا يتعمّد تعذيبها بهذه الأسئلة والمكاشفات؟ وما حاجته إلى ذلك وهو يملكها ولا تستطيع أن تتمنع عليه لو أراد منها ما يريد من غيرها من جواريه؟ وعلى الرغم من ضجيج الخجل والحيرة تنبهت هنا إلى معنى جديد لامس غرور الأنثى العزيزة فيها. إذن فهو يريد منها أكثر مما يريد من سائر الجواري، إذ يختبر مشاعرها ويتفحص نظرتها إليه.

ومع ذلك، فإن تعليقه الأخير على ما فيه من صحة، يقتضي منها ردّاً وإن كان كاذباً.

- وأي عجب في أن أرقب وأتفحص إذ تذهب في النوم يا سيدي؟ وما ذاك إلا لأطمئنّ على حالك ونَفَسِك! أليس هذا من واجبي في تمريضك يا مولاي؟!

لم يعلق هذه المرة، واكتفى بطيف ابتسامة. تأملت ردة فعله لحظة قصيرة، وكانت على يقين أنه لم يصدقها أكثر مما صدقت نفسها. وآن الوقت أن تحرجه كما أحرجها.

- قد عرفتَ يا سيدي لماذا كنت أتفحصك... ولكن لم أعرف أنا بعد لماذا كنت أنت تتفحّصني بينما كنت تتظاهر بالنوم!

التفت بوجهه إليها مقطباً حاجبيه مع نظرة تجمع بين التعجب والتساؤل والاستنكار.

- ها قد عدت إلى طبعك. سوء الأدب في خطاب السلطان، وما أكثر جدالك أيتها المرأة.

شعرت بهزّة فرح خفيفة، إذ سمعته يناديها بتلك الصفة المجرّدة: «المرأة». همّت أن تقول شيئاً فقاطعها:

- دعكِ من هذا الآن. ائتني بشراب.

قامت إلى موضع الشراب، وإذ تذكرت توجيه أبي حسّان النخّاس صبت لنفسها أولاً حسوة صغيرة، وإذ قرّبت الكأس إلى شفتيها، سمعت صوت السلطان:

- ما هذا؟

- أفعل كما علّمني أبو حسّان النخاس في أدب الخدمة للسلطان: أن آخذ من شرابه حسوة قبل أن أصبّ له وأقدّم له كأسه. انظر يا سيدي...

رفعت الكأس بحيث يراه.

- لعلي قد أحسنت التقدير. حسوة تكفي لقتلي إذا كان الشراب مسموماً، وأقلّ مما يمتعني إذا كان الشراب سليماً...

أطلق السلطان ضحكة قوية سرعان ما تحولت إلى آهة مكتومة من الألم الذي حركته. أخذ نفساً عميقاً قبل أن يستأنف:

- هكذا قال النخّاس؟

- أليست هذه العادة كما قال؟

- قطع الله لسانه. من أين يأتي هؤلاء الحمقى بهذه الأخبار؟! إن كان في أهل السلطان من يدبّر لهلاكه، فلا يغني عنه أن يتذوقوا من طعامه ومن شرابه قبل أن يتناول منهما. والآن... صبي لي ولك ما يكفي لمتعتنا معاً... أو لقتلنا معاً.

تبادلا الضحك، وكان هذا أجمل ما سمعت منه حتى الآن فانتعشت روحها به، وحدّثت نفسها:

- هذا رجل لولا مفسدة الحكم، لكان... من أروع الرجال!

* *

مع تلك الواقعة وما أعقبها، تغير كل شيء بينهما. فلم يعد ثمة حجاب بينهما. إذ أذن لها أن تدخل عليه متى شاءت، فإن تأخرت عليه أرسل إليها، فتؤنسه بالحديث والنوادر والقراءة والشعر، بل بضرب العود والغناء أحياناً.

ولم يمنعها الوضع الجديد من أن تخالفه في الرأي أحياناً، كما لم يمنعه من زجرها أو السخرية من رأيها بين الفينة والأخرى. ولكن، كان يبدو أنه يستمتع بذلك. فإذا تظاهرت بالقبول والخضوع استفزّها لتأتي برأي آخر وإن خالف رأيه. وإذا خرج ليتمشى في حدائق القصر طلب صحبتها، وربما صرف أهل الخدمة عن اللحاق به، لينفرد معها في نزهته. ولم يكن لهذا التحوّل أن يحدث دون أن يتهامس به أهل القصر، لا سيما الجواري، ودون أن يثير بعض الغيرة والحسد. وزاد في ذلك توالي هداياه الفخمة لها من الذهب والجوهر وصنوف الديباج الموشّى بالذهب. وإذ رأى الجميع تقريبه لها ارتفعت مكانتها بينهم، فصاروا يحرصون على التقرّب منها ويوسطونها في حاجاتهم كما لا يفعلون مع الخاتون، سيدة القصر التي يمنعها الكِبْر من مخالطتهم إلا في طلب الخدمة.

ولكن أهل القصر الذين لا يفوتهم شيء يجري فيه، لم يفتهم شيء آخر شديد الغرابة. فمع كل تلك الحظوة التي تحققت لهذه الجارية الجديدة، فقد تهامست الجدران بأن السلطان لم يعاشرها بعد! تنوّعت التأويلات دون أن تتبدد الحيرة في هذا السر الغامض العجيب.

مكّنها وضعها الجديد من بعض الحرية في الخروج من القصر من حين إلى آخر، دون أن يعترضها كبير الخصيان أو حرس الباب، ولا أن يسألوها عن غرض الخروج. ولكنها كانت قد استأذنت السلطان في ذلك، واحتجّت له بأنها لا تريد أن تنقطع عن عمل الخير الذي بدأته قبل قدومها إلى القصر في المساعدة في خدمة مرضى البيمارستان، لا سيما النساء العجائز فيه، وأنها درجت على عيادة بعضهن في بيوتهن، وصلتهن بما تقدر عليه. والآن وقد أغناها

السلطان بصلاته فقد حقّ عليها أن تزيد في الصدقات، وإطعام الفقراء والعجزة، وربما أعانت بمالها على إصلاح البيمارستان وتحسين متاعه وأدواته وطعامه، وزيادة العاملين فيه. بل إنها تفكّر في أن توقف من مالها بيمارستاناً آخر، إذ صار القديم ضيّقاً على المرضى.

- ولكن، يمكنك أن تأمري بعض أهل الخدمة فيؤدوا عنك دون أن تتجشمي العناء بنفسك. أما المال، فلِمَ تنفقين مما صار عندك، وأنا أكفيك ذلك من مالي أو مال الخزانة.

- أما المال، فهي صَدَقتي وحق الله فيما صار مالي بعد أن وهبتني إياه يا مولاي. فلا يغني ما ليس في يدي. وما عساي أفعل بالمال وقد كفاني سيدي فوق حاجتي. ولكن، لا يمنع عملي من أن يبذل سيدي من ماله ومال الخزانة مزيداً في وجوه الخير التي ينتفع بها الناس.

- ألا تعلمين أني أفعل؟ قد جعلت لذلك قدراً راتباً من مال الخزانة ومن مالي. وعيّنت ناظراً يقوم عليه.

- وهل تثق يا مولاي بأن المال الذي خصصته يذهب كله في مصارفه؟!

- الدفاتر تقول ذلك.

- الدفاتر تقول ما يدوِّن عليها كاتبها، لا ما يثبته واقع الحال، إلا أن ترى بنفسك يا سيدي، فتعارض كلام الدفاتر على الموصوف في موضعه. نعم، أعلم أن السلطان لا يسعه أن يعاين بنفسه، ولكن جاريته تستطيع أن تؤدي صدقتها بنفسها لمن يستحقّها، وتواسي

بحنانها فضلاً عن مالها، وترى أثر ذلك في الوجوه المتعبة، وتستمع إلى دعاء المساكين لها، وتلك عندي الجائزة الكبرى، ويلحق بك يا مولاي من أجر ذلك إن شاء الله.

تريّث لحظة ثم سأل:

- وهل يعرف أولئك أنك من حريم السلطان؟

- لا أذكر هذا لهم إلا أن تأذن لي. وليتك تفعل. فإن عمل التابع منسوب للمتبوع. وأعلم أن قولي لن يرضيك، ولكن صدّقني يا مولاي إنك في حاجة إلى إرضاء رعيّتك، ولا أحسب أنك تجهل سخط العامة وإن أظهر لك رجال دولتك خلاف ذلك. وليتك تنزل بنفسك يوماً متخفياً لتطوف في الأحياء، فليس الخبر كالعيان.

- على أي حال. يحسن ألا تفصحي عن حقيقة حالك. أخشى إن عرف هذا بعض الساخطين أن يؤذيني فيك. فإن فعلوا بطشت بهم شرّ بطشة، فباء جميعنا بالخسران: أنا، وأنت، وهم.

لم تكن كاذبة في حجة خروجها. ولكنها لم تكن صادقة تمام الصدق. ففضلاً عن أعمال الخير والإحسان التي أرادتها حقاً، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للقاء صاحبها المعلم عليّ. وكان قد مرّ نحو شهرين على فراقها له حين التقته من جديد لأول مرة.

حين دخلت المنزل الذي قادها رسوله إليه، كان قلبها يدقّ بشدة. ولم تدرِ هل السبب في ذلك لهفتها على لقائه، أم خوفها من أن ينكشف أمرها عند السلطان. ثم برز عليّ من غرفة مجاورة. وبدون تفكير بسط ذراعيه ليحضنها وقد غلبه الشوق. ولكنه فوجئ بها تجفل وتتراجع.

- ماذا دهاكِ؟ أهذا خير ما تستقبلين به حبيبك بعد ذلك الوقت على فراقنا؟

- حق الحبيب على الحبيب أن يصونه ويصون نفسه من الحرام حتى يحلّ له.

- وكيف أعبر لك عن شوقي ولهفتي؟ أليس في نفسك بعض ما في نفسي؟

- بلى... ولكن... لا تكون الرغبة سبيل الشيطان علينا، حتى أخرج من ذمة السلطان إلى ذمتك.

أسقط في يده وقهر رغبته، بينما كانت تتلفت في المكان.

- لا أحد معنا؟

ظنّ أنها تسأل من باب الحذر والتكتم.

- وهل حسبت أني أُشهد أحداً على كلامنا؟

ولكنها فاجأته من جديد:

- من طلب الحق وسعى إليه، فأجدر به أن يستعمل له طرق الحق كي يبارك الله بعمله ويُبلّغه غايته، وهذه خلوة محرّمة.

علّق ببعض العصبية:

- ماذا؟ هل أنزلتكِ عند سلطان جائر، أم عند فقيه؟

أرسلت إليه نظرة عتاب. وكان عليه أن يخضع أمام إصرارها على الخروج إلى بعض الرياض المطروقة، وحسبها أن تسدل النقاب على وجهها فلا يميّزها أحد.

بالطبع كان شديد التلهف لسماعها. وكان يريد أن تقص عليه كل شيء مما وقع لها وما شهدته منذ وضعت قدمها في القصر. وصفت له أجواء القصر وترفه وحريمه وأصناف أهل الخدمة فيه، وما يدور فيه من مكائد وتحزبات وخيانات شخصية، وكيف وجدت أن أهل القصر أقلّ تخوفاً وحذراً من السلطان من عامة الناس خارجه. وكل ذلك مما ييسّر مهمتها هناك. فلا ثمة ما لا يستطيع المال أن يشتريه. وعلى الرغم من أهمية تلك المعلومات فقد ضاق ذرعه متعجّلاً أن تحدثه عن عدوّه الأعظم: السلطان نفسه، وعمّا جرى بينهما منذ صارت عنده. وحين بدأت في الحديث عنه أدهشه منها أنها لم تمطره، كما جرت العادة وكما يستحق، بوابل من اللعنات والشتائم، ولم تنخرط في وصف جنونه وقسوته وغلظ كَبِده وأوهامه وسفهه، وما كان عليها أن تكابد في جواره... أو في صحبته. بل إنه كان يتوقع منها، أو ربما يرجو، أن تبدأ باللوم والتقريع على أن أوردها ذلك الجحيم وإن عظمت الغاية. وكان قد هيّأ نفسه لأن يراها تنهار بالبكاء من قسوة ذلك الاختبار وثمنه الباهظ من روحها. بل كان يخشى أن تنشده الله أن يخرجها من هذا الذي لا طاقة لها به. وكان قد أعدّ حجاجه لتهدئة خاطرها وشدّ عزيمتها وحثّها على المضي فيما بدآ به وإن عظمت التضحية، مستعيناً بأدلة الدين والحق والعدل وقصص الابتلاء التي صبر عليها أهل الحق، ففازوا أخيراً بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة! ولكن شيئاً مما توقعه لم يحدث. وعلى الرغم من أن هذا حرّره من عبء عاطفي شديد فإنه شعر بشيء من خيبة الأمل. وبدا أنها قد أدركت ما يدور في خلده حين قالت:

- هل كنت تعتقد حقاً أن الطاغية إذا خلا إلى بيته وأهله بقي مكشراً عن أنيابه فيصنع معهم ما يصنع في حربه وخصوماته؟! هل تحسب أنه يقتل فقط ليستمتع بالقتل ورؤية الدماء، أم يؤثر أن يخضع له الجميع طوعاً وسلماً فيكفوه مؤونة البطش؟ ألا ترى إلى السبع الضاري يفتك بفرائسه بلا رحمة، ثم يحمي أشباله وإناثه حتى الموت؟ إلّا أن السبع يعمل بطبيعته التي فُطِر عليها، وأما الطاغية فبالطبع الذي تطبّع به أو طبعه به السلطان. فإن كان في مقام الأمن في أهله وبيته رجع إلى سجيّته الأولى قبل أن يفسده السلطان. فلو رآه أحد على تلك السجيّة، دون أن يعلم أخباره الأخرى، لم يسعه أن يدرك صورته التي يراها بها خصومه ورعيّته المنكوبة به.

استدار عنها، وتمشى بضع خطوات، ثم التفت إليها:

- وكيف وجدت سجيّته الأولى؟!

تفحصته بنظراتها قبل أن تجيب:

- لا يهمك ولا يهمني ذلك. فمهما يكن، فلن ينسينا حقيقته.

أشاحت بوجهها، إذ كان يدقق النظر فيها كأنه يريد أن يسبر أغوارها، وقد أدرك أنها تتهرّب من الجواب الشافي.

- هل...؟

تحوّلت بنظرها إليه إذ تريّث في إتمام السؤال. وقد أدركت مراده على كل حال. ولكنها آثرت أن تتغافل:

- هل، ماذا؟

ثم استدركت من الفور:

- تعني ذاك؟ ليس السؤال منصفاً لي أو لك. أعني... ألست جاريته؟ وهل أملك الامتناع عنه إن شاء أن... وهل هذا ما تريد على كل حال؟ أحسب أنه لن يسرّك الجواب على أيّ الوجهين... فإن قلت نعم ساءتك غيرة الحبيب. وإن قلت لا، ساءك إخفاقي في التقرّب منه لغاية الثائر الذي عصى قلبه من أجلها. ألم تفكر في هذا كله حين عزمت على هذا الأمر وسقتني إليه؟ أم أنك تتوقع مني أن أجمع بين الضدّين: قرب الوساد مع بُعد الأجساد؟! ألا يكفيني أنني الآن أكابد بين ضدّين آخرين، إذ أنا حرام على الحبيب، حلال للعدو؟

انقبض وجهه انقباضاً شديداً وهو يستمع إليها، ولا يحير جواباً. وتابعت بعد لحظة تريّث.

- أحسب أنك لن تعرف الجواب حتى ينقضي هذا الأمر وأخرج من ذمّته إلى ذمتك. ولك عليّ أن أؤدي ما عاهدتك عليه ولو كان فيه هلاكي. ولي عليك ألا تسألني عن هذا الأمر مرة أخرى أبداً.

حين فارقته عائدة إلى القصر كادت تشعر ببعض الإشفاق عليه وقد رأت ضعف حيلته أمامها في ذلك الموقف، وهو الرجل القويّ المتحكّم. ومع ذلك غمرها شعور لذيذ بالقوة والتمكّن. بل ربما خالط ذلك رغبة خفية بمعاقبة الرجل الذي دفعها إلى تلك المغامرة الخطرة، وإن توحّدت الغاية النبيلة. وقد أدركت بعد هذا الوقت ما لم يكن في حسبانها أول الأمر. فليست العقوبة المحتملة، إذا انكشف سرّها، هي أشدّ ما تخشى، وإنما الخطر الأكبر فيما تحمله تلك المجازفة من إغراءات وما تبعثه من رغبات مطمورة!

ومع ذلك فهي ما تزال تحبّه. ولعلها كانت في حاجة إلى هذا اللقاء لتغذّي شعلة الحب في وجدانها، وفي الوقت نفسه تستضيء بها كيلا تضلّ عن وجهتها إذ يتعرض لها الشيطان بسحره وغواياته. فكما أن الولوج في الغابة يريك من تفاصيلها ما لا تراه العين من خارجها، فإنه يحجب عنك صورتها العامة، وقد تضلّ طريقك فيها. ولكن الأشد من ذلك كلّه، كما سيظهر لها تدريجاً، هو التباس الضلال بالهدى. فها هي قد صارت شديدة الثراء بعطايا السلطان السخيّة التي لا تتوقف. وإذ يخالطها من ذلك شعور بالذنب، فإنها تدفعه بالإنفاق في مصارف الخير والصدقات للفقراء والمساكين والمرضى والعجزة والأيامى واليتامى وطلبة العلم. ولكن ماذا عن بذل شطر من ذلك المال لعليّ كي يستعين به في إعداد العدّة للثورة ضد السلطان؟ لقد غلبها عليّ على ذلك بحجة العقل والمنطق. فحين رأى أثر الصدمة على وجهها وترددها في إجابة طلبه ردّها إلى واقع الحال بلهجة قاطعة لا تخلو من السخرية.

- سبحان الله: لا تجدين حرجاً في التجسّس على الطاغية الذي أذلّ الرعية وأفقرهم وطغى واستكبر، وقتل جنوده أهلك واسترقوك... لا تجدين حرجاً في التواطؤ معي ومدّي بالأخبار والأسرار التي ترجح نصرنا عليه وخلعه والاقتصاص منه، ولكن تجدين حرجاً في أن تعيني عليه بالمال الذي يمنحك إياه؟ ومن أين جاء بكل تلك الأموال؟ هل أورثها له أبوه الذي كان يحرث الأرض لغيره؟ أم هي أموال الأمة التي غصبهم إياها ثم استقوى بها عليهم، وخصّ بها بطانته ومواليه؟! و... هل أقول جواريه؟

ما كان في وسعها أن تدفع حجته تلك، فخضعت لها. ولكنها لم تستطع أن تحرر صدرها تماماً من الضيق والتأثّم والحرج. فلما أعياها الأمر، أخذت تسترجع ما كانت في العادة تَفِرُّ من استدعائه من مستودع الذكريات الفاجعة: صورة ثلة من جند السلطان يهاجمون قريتها في ذلك الصباح الداكن المشؤوم، كانوا يلاحقون فلول عسكر بلدها المهزومين، فمن أدركوه منهم قتلوه من الفور. وبعد أن فرغوا من ذلك بدؤوا في السلب والنهب. فما وجدوا من ماشية ساقوه أمامهم، ثم أخذوا يقتحمون البيوت بحثاً عن المال والغلال. وكانوا يجرّدون النساء من زينة الذهب والفضة. فمن حاول المقاومة أو اعترض عاجلوه بالسيف أمام أهله. كان بيتها متنحياً في طرف البلدة وسط مزرعة يكدّ فيها أبواها. وكانت قد خرجت لتنشل بعض الماء من البئر كما طلبت أمها، حين رأت ثلاثة فرسان يقبلون من بعيد. فهرعت إلى البيت تنذر أبويها. ولولت أمها رعباً بينما حافظ أبوها على رباطة جأشه. كان رجلاً شجاعاً وتقياً ومثابراً يحظى باحترام الجميع. وفي تلك اللحظة كان أشد ما يخشى عليه هو ابنته ذات العشرة أعوام. فأمرها أن تخرج فوراً من الباب الخلفي وتعدو بأسرع ما تستطيع وتختبئ وراء أجمة قريبة. ولما رآها تلتصق به وهي ترتجف بشدة صاح بها أن تطيع أمره دون إبطاء، ففعلت وقد أخذ الرعب منها كل مأخذ. لبثت مختبئة في مكانها بعض الوقت. ولم يكن في وسعها أن ترى ما يجري عند البيت، إلا أنه تناهى إلى سمعها أصوات مختلطة لم تتبيّن حقيقتها، إلا حين سمعت صرخة أمها الحادّة القصيرة. وبدون تفكير وجدت نفسها تركض نحو البيت لتواجه صدمة العمر التي لا ينبغي لطفلة في العاشرة أن تختبرها. كان والداها

مستلقيين على الأرض في بركة من الدماء وقد استقر رأس أمها على صدر أبيها، وذراعها يطوّقه. انكبت عليهما وقد اختنق صوتها بالنحيب وهي ترتجف كورقة الخريف في مهب الريح، صرخت بكل كيانها ولكن الصرخة استعصت على الخروج. وفي غمرة تفجعها غابت الألوان والأصوات من حولها فلم يتسع وعيها لغير والديها القتيلين لترى الفرسان القتلة يخرجون الماشية من الحظيرة غنيمة لهم. ولكنهم بالطبع رأوها من حيث لا تراهم. وأخيراً رفعت رأسها إذ اقترب أحد الفرسان منها، ونظرت إليه خَلَلَ دموعها المنحدرة بغزارة. لم يترك الحزن في نفسها مكاناً للخوف الآن، بل تمنّت أن يلحقها بأبويها. ولكن كانت لديه أفكار أخرى، انتهت بها إلى دار النخّاس، ومنها أخيراً إلى قصر السلطان الذي قتلت عساكره والديها في ذلك الصباح الداكن المشؤوم ثم حملوها معهم سبيّة. ثم إذا شبّت في دار الرقيق عاهدت نفسها وحبيبها على الثورة والانتقام.

فكيف إذن تجد الآن في صدرها حرجاً من إنفاق المال الذي يمنحها إياه السلطان في إعداد العدّة عليه؟! بل ينبغي لها أن تتأثم من هذا التأثم! فكأنها بذلك تخون ذكرى أبويها، وتترك للشيطان أن يزلها بالثمرة المحرّمة وينسيها أنه العدوّ الأكبر.

حين وصلت بتفكيرها عند هذا، شعرت ببعض الراحة. وازدادت إدراكاً أن الحياة بطبيعتها اختبار معقّد، وأن المشتبهات فيها كثيرة، وأن غاية ما يطمح إليه الإنسان المكلف هو أن يقارب إن لم يكن في وسعه أن يسدّد، وأن الخيار ليس دائماً بين حق لا لبس فيه، وباطل لا لبس فيه، وأنها موازنة وترجيح في معظم الأحيان. ولسوف تواجه قريباً الكثير من تلك الاختبارات الصعبة.

5

لم يكن غريباً أن يقع شغب بين أهل السوق من وقت إلى آخر حيث تتزاحم الأقدام وتتنافس الحظوظ والأطماع وينشط اللصوص والزعّار وتتصادم حاجات الفقراء مع جشع بعض التجار الذين يعمدون إلى تخزين البضائع وحجبها وقتاً كي ترتفع أسعارها. ولكن الشغب هذه المرة كان بين أهل السوق والشرطة. وبالطبع لم يكن صداماً متكافئاً، فسقط بعض الضحايا وسالت الدماء.

حاول قائد الشرطة أن يهوّن من حقيقة الأمر.

– ليس هناك ما يدعو إلى القلق يا مولاي. لم يكن الأمر أكثر من ...

قاطعه السلطان بعصبية:

– شغب في مملكتي، وبعض العامة يهاجمون شرطتي، ثم تقول لي: ليس هناك ما يدعو إلى القلق؟ هل تعني أن هذه الأمور صارت من المألوف حتى لا تستحق اهتمامي؟

– العفو يا مولاي. ولكن لم يكن الأمر أكثر من شغب عابر مما يدبره بعض الزعار والدّعار والشُطّار وأهل الشرور والمعاصي

من سقط الناس. وهؤلاء لا يخلو منهم مكان ولو أغنيتهم عن كل طلب... إنما هي طبائع. ولذلك كانت الشرطة.

- ولكنه لم يكن شغب بين الناس حمل شرطتي على التدخل. إنما بادروا إلى مهاجمة الشرطة أولاً كما علمت. فلماذا وقع هذا اليوم دون البارحة... أو الغد!

- شرطتك يا مولاي عينك الساهرة على أمن رعيتك ودولتك. وقد نزلوا السوق على عادتهم في حفظ الأمن وحماية الحقوق وردع من تحدّثه نفسه بعمل السوء. فلما رأى أولئك اللصوص والزعار أنهم لا يستطيعون شيئاً مع وجود الشرطة، تواطأوا على أن يعمد بعضهم إلى مهاجمة بعض الشرطة ليشغلوهم بأنفسهم عن السوق، فتعمّ الفوضى بينما يعمد سائرهم إلى النهب والسلب ثم يفرّون ويقتسمون الغلّة فيما بينهم. ولكن شرطة مولانا أفشلت تدبيرهم فلم ينالوا شيئاً مما أرادوا، وعاد الأمن إلى السوق، ولكن أصيب واحد من شرطة مولانا إصابة طفيفة. أما اللصوص فقُتل منهم اثنان وتقبضنا على ثلاثة هم الآن في الحبس ينتظرون العقوبة بإذن مولانا، واختلط سائرهم في الناس فلم يكن في الوسع تمييزهم بين تلك الجموع، وفرّ من فرّ منهم، ولكننا نلاحق الأمر بالبحث والسؤال، ونستجوب الثلاثة الذين تقبضنا عليهم ليسمّوا أصحابهم، ولن يهدأ لنا بال يا مولاي حتى نتوصل إليهم جميعاً ونستأصل شأفتهم ونقمع شِرَّتهم ونطفئ نارهم.

أخذ السلطان يتمشى في المكان وقد عقد حاجبيه وضمّ ذراعيه وراء ظهره، ثم توقف أمام الحضور يستعرضهم، ثم وجه كلامه للوزير:

- هل هذه الحقيقة كلها؟ هل صدقني صاحب الشرطة!

- هي الحقيقة يا مولاي. تأكدت من ذلك بنفسي. بل اجتمعت بجلّة من أعيان التجار وأهل السوق الثقات العدول، فشهدوا بما سمع مولانا أيّده الله. بل جئت ببعضهم وأوقفتهم على بابك، فإن أذن مولانا أدخلتهم يشهدون في حضرتك.

عاد السلطان يتمشى صامتاً متفكراً بوجه منقبض... ثم تحدث دون أن يلتفت:

- ما دمتم قد اجتمعتم على ذلك القول، فلا تتركوا الأشقياء الثلاثة الذين صاروا في الحبس حتى يفصحوا عن أسماء أصحابهم. وأوجعوهم بكل الطرق حتى يعترفوا. فإن فعلوا، أو يئستم من خضوعهم، فأعرضوهم على القاضي الريحاني، فليقضِ بصلبهم في ظاهر المدينة بحدّ الحرابة، ليكونوا عبرة ورادعاً لكل من يجرؤ على أمن البلاد والعباد وعلى هيبة السلطان وشرطته.

* * *

حين دخلت قمر عليه في مجلسه الخاص ذلك المساء، كان قد صرف أهل الخدمة واضطجع وحيداً على الأريكة واجماً منقبضاً شارد الذهن.

- طاب مساؤك يا مولاي.

لم يردّ على تحيتها ولم يغير من ضجعته.

- هل آتيك بشراب يا سيدي؟

هز رأسه بالنفي هزة خفيفة...

- عودي من حيث جئت. لا حاجة بي لشيء، ولا لأحد الآن.

- الهمّ إذا تقاسمه أهل المودة قلّ يا سيدي... بخلاف الفرح فإنهم إذا تقاسموه زاد.

رفع رأسه قليلاً وتحوّل ببصره إليها.

- إن كنت سأشرك أحداً في همّ من هموم الحكم، فلن يكون جارية.

- فمن يكون يا مولاي؟ واحداً من هؤلاء الذين ينافقونك ثم يكتمون عنك ما تكره؟ ولا يسمعونك إلا ما يوافق أغراضهم!

اعتدل الآن من ضجعته وقد نجحت من جديد في جذب اهتمامه، وأدرك من نبرة صوتها أن لديها ما تقوله عن أحداث السوق.

- ما الذي تريدين قوله؟

- أصدقك فيما كذبوا به عليك، غيرةً على الحق، وعلى المظلومين، وعلى مولاي السلطان أن يخدعه بعض أعوانه فيحتمل إثماً عظيماً بغير علم.

- على رسلك أيتها الفتاة. قبل أن تكملي... كيف علمت ما دار بيني وبينهم اليوم؟

اضطربت قليلاً، ولكنها تداركت نفسها بسرعة:

- لا حاجة لي بأن أعلم ما الذي قالوه لك يا سيدي، ولكني أعلم ما لم يقولوه ولن يقولوه حرصاً على أنفسهم من غضب

السلطان... وهو بعد حدث عام ليس للناس حديث غيره، وهم فيه بين ثاكل وموتور وحاقد، ولا يجدون ما يثأرون به إلا سهام الليل... الدعاء على الظالمين...

- حسبك من هذه المقدمات، وقولي ما عندك.

- إذن اعلم يا مولاي أن الذين ثاروا بشرطتك ليسوا من الزعّار والدعّار والشطّار. إنما هم ثلة من أهل المروءة الذين طفح عندهم الكيل من طول ما رأوا من ظلم الشرطة وتعدياتهم، وأخذهم الأموال بالباطل، وفرضهم الإتاوات لنفسهم، واجترائهم على الحرمات وضربهم الناس بالسياط اعتباطاً. وفي ساعة الواقعة سكر بعضهم على أعين الناس، ثم تعرّضوا لإحدى النساء الحرائر.. الحرائر المصونات يا مولاي، لا الجواري اللواتي يترخّص الناس في أمرهن! فاستصرخت أهل النخوة فأجابوا كما ينبغي لهم، فوقع التدافع والصدام، وتكاثر الشرطة بالسلاح حتى انجلى الموقف عن ثلاثين قتيلاً من الناس... ثلاثين يا سيدي، بينهم فتى في التاسعة. وتقبّضوا على مائة... مائة يا سيدي أخذوهم اعتباطاً ممن اتفق وجودهم هناك.

نزل جالساً على حافة الأريكة، وأطرق متفكراً وقد زاد وجومه.

- هل يجرؤ كبار دولتي على أن يكذبوا عليّ! قائد الشرطة، والوزير، والحاجب، وصاحب السوق! كلهم كان حاضراً، وصدّق بعضهم بعضاً.

- بالطبع فعلوا!

- وجاؤوني بثلاثة من كبار أهل السوق، فشهدوا بشهادتهم.

- ما لا يصنعه الترهيب، يصنعه الترغيب. وقد عرف الناس أن أعوانك قد حكروا لبعض التجار أصنافاً من السلع لقاء نصيب من أرباحها فهؤلاء يشهدون كما يُطلَب منهم. وعلى كل حال، لن يعجزك يا سيدي أن تتبيّن الحق... فتعرف صادقنا من كاذبنا، ثم تحكم فينا كما تشاء. ولكن، نشدتك الله يا سيدي أن تعجل في الأمر لتدرك المحبوسين ظلماً قبل أن يُبطَش بهم لإخفاء الحقيقة، وتسترضي رعيتك بكل ما في يدك وتبرئ نفسك مما جنته شرطتك، فإن عملهم منسوب إليك. وفي مثل هذه المظالم التي لم يأمر بها السلطان مظلومان يا سيدي: الرعية والسلطان نفسه. فإن انتصفت لرعيتك فقد انتصفت لنفسك .

أدهشته العبارة الأخيرة حقاً. فالسلطان إما أن يوصف بالعدل في رعيته، أو بظلمها، وهو الفاعل على الوجهين. أما أن يُجمع بينه وبين رعيته في المظلمة، وأن يكون انتصافه لهم انتصافاً لنفسه، فهذا ما لم يسمع مثله من قبل.

ما زالت هذه الجارية تدهشه في كل يوم. ومع ذلك تمنّى ألا تكون روايتها عن واقعة السوق صحيحة، كيلا يظهر بمظهر السلطان الغافل أو المُستغفَل الذي تعلم جارية من جواريه ما لا يعلم. صحيح أن ذلك، لو صحّ، ليس دليل ضعف في حالته، وإنما يمليه خوف أعوانه من غضباته، ولكن الذي يجرؤ الآن على حجب الحقائق عنه خشية منه، يمكن أن يغتر بنفسه بعد حين فيحجبها عنه استئثاراً واستقواءً.

ولكن رواية قمر كانت صحيحة. وما كان اكتشاف الحقيقة ليعجز السلطان كما قالت. وكان انتقامه شديداً، فأطلق سراح المحبوسين من الفور، وعزل قائد الشرطة الذي أقسم عنده بأنه لم يتعمد الكذب، وإنما أخذ بشهادة مقدّمي الشرطة الموكلين بالسوق. ولكن السلطان لم يحاول التحقق من صدقه هذه المرة، بل زاد على عزله وعزل المقدَّمين وصاحب السوق بأن صادر أملاكهم وضياعهم وردّ أثمانها على ضحايا القتل والحبس، وفعل مثل ذلك مع التجار الثلاثة الكبار الذين صدقوا شهادة الشرطة عنده. ثم تتبع الشرطة الذين أطلقوا شرارة الصدام بالسُّكر والعربدة والتحرش، فأمر بجلدهم على مشهد من أهل السوق، ثم نفاهم من الأرض، وبعث برسله إلى أهالي القتلى ليؤدوا واجب العزاء نيابة عن السلطان. وكاد يبطش بوزيره وحاجبه لولا مآثرهما القديمة عنده وحاجته إلى تدبيرهما، فأحبَّ أن يُصدق اعتذارهما بأنهما خدعا بشهادة الشهود مع كثرتهم، فظنّا أنهم لا يتواطؤون على الكذب، لا سيما الكذب على السلطان الذي يخشى ملوك الأرض سطوته.

بعد أن تبيّن له الحق في روايتها توقع أن تتعجل الدخول عليه في مجلسه الخاص لتعبّر عن بهجتها ورضاها، ولكنها لم تفعل. ولئن اشتد عجبه من ذلك، فقد صار أشد تعجباً من نفسه إذ وجد نفسه يطيل الجلوس في انتظارها. فإذا سمع حركة قريبة تنبهت حواسّه كلها، وإذ لا يعقب ذلك ظهورها، يشعر بخيبة أمل، ويرجو ألا يطول إبطاؤها عنه. أليس هذا حال المحبّين؟ وهل الشوق إلا ترقب وصل من يستطيع الهجر إن شاء؟ وكيف يشتاق الإنسان إلى ما في يده؟ إلا أن تكون حاجته لا تُنال إلا بالشراكة

الطوعية وأن يستوي الطرفان فيما يتملكه من الآخر بسلطان العشق والإقبال المتبادل.

وهو الآن، وإن كان المالك، يدرك أن هذه الجارية قد تملكت منه ما لم يتملك منها بعد. نعم، يستطيع أن ينال منها ما ينال من سائر الجواري. ولكنها ليست كسائر الجواري، ويريد منها أكثر مما يريد منهن. يريد منها أن تمنحه قلبها كما يمنحها قلبه، لترتقي المعاشرة الجسدية المؤجلة فوق الغرائز الحيوانية المحضة، وتكون مزاجاً من الطين المسنون والروح التي نُفخت فيه!

حين طال انتظاره لها بلا طائل، تحولت لهفته إلى شيء من القلق، ولما سأل عنها الناظر على الخاصة أعلمه أنها متوعكة محمومة.

- هل دعوتم لها بالطبيب؟

- لم نعلم بحالها يا سيدي إلا الساعة، حين أرسلت في طلبها.

كانت تستلقي على سريرها وقد أزاحت الغطاء واكتفت بثوب خفيف يكشف عن ذراعيها وكتفيها، وارتفع سروالها إلى ما بين كعبيها وركبتيها وتبلّل وجهها وعنقها بعرق الحمّى بينما تعاودها رجفة خفيفة بين الفينة والأخرى، حين شعرت بالباب ينفتح بهدوء. تحاملت على نفسها ورفعت رأسها قليلاً تنظر بعينين ثقيلتين شبه مغمضتين تغلفهما غشاوة من أثر الحمى. وإذ تقدّم الزائر خطوات إلى الداخل لم يعد عندها شك فيما تراءى لها للوهلة الأولى، وأذهلتها المفاجأة الصادمة عن نفسها فتصرّف لسانها دون تدبّر.

- أنت!

وأسرعت إلى الغطاء فوضعته على جسمها ودفنت معظم رأسها تحته.

وقف إلى جانب سريرها يدقق النظر وقد لاحت على وجهه ابتسامة:

- أنت! أهكذا تخاطبين سيدك أيتها الفتاة؟ ظننت أن المرض يهذّب الأخلاق ويخفف من حدّة الطبع.

أجابت بصوت متقطع ضعيف:

- المعذرة يا مولاي. ولكن المفاجأة أخرجتني عن طوري. أفما كنت تؤذنني بزيارتك يا سيدي!

- ولِمَ أفعل؟

- حتى لا تفاجئني وأنا مُتَبذِّلة متجرّدة في مخدع نومي.

أطلق ضحكة خفيفة ساخرة.

- لماذا ينبغي أن أذكرك بأنك ملك يميني، ولي منك ما للرجل من حريمه؟

- ولنا عليكم ألا تروا منا ما نكره أن ترونا عليه من التبذل وسوء الهيئة. ولذا استحب غير واحد من السلف أن يستأذن الرجل على أهله وهم في بيته.

- ولكني لم أرَ منكِ الآن مُسْتكرهاً يحسن إخفاؤه عن الصاحب.

قال ذلك وهو يجذب عنها الغطاء إلى الأسفل ليكشف عن وجهها وعنقها وكتفيها العاريتين على الرغم من مقاومتها الضعيفة، فأخذتها القشعريرة. قال وهو يضع راحة كفه على جبينها:

- أنت محمومة حقاً!

- وهل شككت في ذلك يا سيدي؟

- لولا الرجفة والعرق لخالطني بعض الشك، فحديثك ليس حديث مريض أقعده المرض عن الزيارة!

- و... كنت تترقب زيارتي؟

- أترقّب! لا تبالغي في تقدير مكانتك عندي. الترقب تخالطه اللهفة. ولكن قولي: تتوقع. وكيف لا أتوقع أن تتعجّلي إليّ مستبشرة فرحة بما ثبت عندي من صدق روايتك عن واقعة السوق؟

- فلما أبطأت عليك جئت بنفسك تزفّ لي الخبر!

- وأعودك في مرضك.

- وهل تعود كل جارية من جواريك في مرضها يا سيدي؟

تجاهل السؤال، ورأته يتلفت في الحجرة ثم يتجه إلى حيث يوجد إبريق ماء قريب وطست فضي، فصب بعض الماء في الطست، ثم أخرج من جيبه منديلاً حريرياً أنيقاً وغمسه في ماء الطست وعصره قليلاً، بينما كانت تراقبه في حيرة وتعجب. عاد بالطست والمنديل المبلول إلى جانبها وجلس على حافة السرير بعد أن وضع الطست على صندوق خشبي أنيق ذي أدراج بحذاء السرير، تضع

فيه بعض أغراضها. ثم أخذ يمسح بالمنديل المبلول جبينها ووجهها. قالت معترضة بأدب وحياء:

- دع عنك ذلك يا مولاي... لا تُكلف نفسك.

أجاب بنبرة صارمة:

- اصمتي.

أعاد غمس المنديل بالماء، ثم ضمّ شعرها بيديه ورفعه إلى الأعلى لتنكشف أذناها وعنقها كله من الأمام والخلف وتابع الترطيب بالماء، وهو يثبت بصره مباشرة في عينيها، حتى غلبها الحرج فأغمضتهما. وفجأة جذب الغطاء إلى وسط جسمها لينكشف نحرها وجيب الصدر. أسرعت بحركة عفوية إلى رفع الغطاء من جديد، لتستر ما انكشف منها وتجاذباه دون كلام، ولكنه غلب عليها حتى اضطرت إلى الخضوع. ثم زاد على ذلك أن شمّر لها عن ذراعيها حتى أعلاهما، وظهر بياضهما الناصع. حاولت أن تقاوم من جديد بلا جدوى.

- اسكني أيتها الفتاة، ودعي سلطانك يقوم بعمله، وإلا جردتك من ثوبك لتعم الرطوبة أكثر بدنك. أين علمك بالطب والمرض؟ من جَهْل الناس أن أحدهم إذا أصيب بالحمى وأخذته القشعريرة تدارى منها بأن يدفن نفسه تحت الأغطية الثقيلة كما يتدارى من البرد. وعلّته شدة الحرارة التي يمكن أن تخالط الدماغ. وحقه الاستبراد منها بالماء يعم به أكثر بدنه.

قال ذلك وهو يناوب بين غمس منديله بالماء وعصره ومسح ما انكشف له من بدنها. وقد أخذ منها الحياء مأخذ من تنكشف على غريب دون إرادة منها.

- السلطان أعظم من أن يمرّض أمَةً من إمائه. دع ذلك لبعض نساء القصر يا سيدي، أو... افعل ذلك بنفسي.

مدّ لها يده بالمنديل على الفور:

- هيا افعلي. وتوضّلي بالماء إلى ما تحت الجيب من الصدر، ولا تنسي الساقين حتى أعلى الركبتين.

تجمّدت لحظة وغلبها الارتباك.

- الآن؟

- نعم الآن، فمتى إذن؟

- ألا تغادر أولاً يا سيدي؟

- ولِمَ أغادر ملكي المباح وخلوتي الشرعيّة التي لا يرجو الشيطان أن يكون فيها ثالثنا!

تسمّرت في مكانها لا تحير جواباً ولا تهتدي سبيلاً للخروج من هذا الحرج. مرت لحظات صمت قليلة وثقيلة في آن، قبل أن يطلق ضحكة مجلجلة غريبة وهو يتجه نحو باب الحجرة، وقبل أن يخرج التفت إليها:

- لا ... لا أعود كل أَمَةٍ من إمائي في مرضها. بل إنني لا أعلم بمن تمرض منهنّ. ولكن افعلي كما أمرتك... وسأرسل إليك من جواري الخدمة من تعتني بك حتى تبلّي من مرضك... أذهب الباس ربّ الناس.

أغلق الباب وراءه. ومكثت ساكنة في فراشها مشدوهة تفكر في الذي حدث وتستعيد تفاصيله، ووجدت نفسها تتلمّس وجهها

وعنقها ونحرها وذراعيها حيث مرّت يده. نعم، ذهب الحرج من الرجل مع خروجه، ولكن حلّ مكانه حرج آخر مع نفسها... فبقدر ما أخجلها طلب التكشف أمامه، أخجلها من نفسها تلك الرغبة السرية العارضة في الامتثال لأمره! لولا أنه أنقذها من نفسها في اللحظة الأخيرة بخروجه مع تلك الضحكة الساخرة! ما الذي أراده بذلك على كل حال! لا بد أنّه يتلاعب بها. لعله يريد أن يختبر قدرته على الإغواء ليرضي غروراً لا يمنحه الإملاء، فتكون متعته الأخيرة مكسوبة من طرفه، موهوبةً من طرفها. ولعلّ قوة شخصيتها التي أثارت إعجابه واهتمامه ابتداءً قد مثلت له أيضاً تحدياً غير مسبوق يغريه بالفوز فيه عليها ليفوز بها. والآن تدرك أن جاذبيته الجسدية ليست أخطر ما في جعبته في هذه العلاقة الملتبسة، وإنما الأخطر والأقسى تلك اللمسات الحانية الرقيقة التي تبدر منه بين الفينة والأخرى نحوها، فضلاً عن استعداده للاستماع إليها والثقة التي منحها إياها.

ولكن إن كانت هذه كلها مما يضعف مقاومتها، أليست في الأصل نتاج تداعي مقاومته أمام تأثيرها الطاغي، ونجاحها في اختراق حصونه لتحرر عواطفه ومشاعره الرقيقة الحبيسة التي يمكن أن تتنامى على حساب القوة الفجة فتلتبس بالضعف؟ فقد تأكد لها أنه لا يظهر شيئاً من ذلك مع أي من نسائه، حتى زوجه الخاتون.

أهذا أول الحب من طرفه! بقدر ما دغدغت الفكرة حواسها الأنثوية فإنها أثارت المزيد من حيرتها ومخاوفها، منه ومن نفسها!

* * *

في قصر يحتجب خبره عن العامة، ولا يحتجب عن أهله، لم يطل الوقت حتى عرف الجميع مسؤولية قمر في كشف الحقيقة للسلطان عن واقعة السوق وما أعقب ذلك من بطش السلطان بالمسؤولين عنها، ومنهم بعض كبار أعوانه. صحيح أنها لم تنفرد بمعرفة الحقيقة، ولكن الجديد هو أن تجرؤ على فضح كذب المسؤولين والإيقاع بهم، وأن تجد عند السلطان أذناً صاغية تحمله على التحقيق في الأمر. فهذا ما لم يحدث من قبل ويمثل سابقة خطيرة تظهر ما وصلت إليه هذه الجارية الجديدة في وقت قصير من منزلة خاصة عند ولي الأمر الذي يملك مفاتيح البذل والمنع، والثواب والعقاب، والتقديم والتأخير. وبقدر ما رفع ذلك من منزلتها بين سائر الإماء حتى صرن يتسابقن إلى خدمتها وإرضائها، فإنه أوغر عليها صدور البطانة المتنفذة التي سترى فيها منذ الآن خطراً يتهددها ويوجب التفكير والتدبير والمكيدة. والآن وافقت أغراضهم أهواء السيدة الخاتون التي تنامى لديها الشعور بأنها لم تجلب للسلطان جارية يتمتع ويتلهّى بها، كما يسرّه أن يضيف فرساً جديدة إلى إسطبل خيوله، وإنما جاءت بضرّة لها تفوقها حُسْناً وجمالاً وعلماً وظرفاً، وتبلغ من السلطان ما لم تبلغه يوماً، ولن تبلغه.

كان يتأهب للخروج حين دخلت عليه في جناحه الخاص، وصرفت أهل الخدمة بحركة من رأسها.

- ما بال سيدي قد انصرف عن زيارتنا، فلا نراه إلا قليلاً.

نظر إليها متعجباً، فليس من عادتها أن تتذمر من غيابه أو إبطائه عنها.

- منذ متى تطلبين الزيارة؟ ما وراء السؤال؟

- غيرةُ السلطانة على سلطانها.

أدرك القصد من الفور. فرمقها من جديد بنظرة عميقة فاحصة. ثم تحدث بنبرة ساخرة:

- تعنين الجارية التي ابتعتِها أنت لي لأتمتع بها!

- كما تتمتع بغيرها من الإماء، لا أن تقضي معها كل ذاك الوقت في المسامرة والجدال وحديث العقل والقلب... و... شؤون الدولة.

ازداد وجهه انقباضاً، ولكنه كتم غضبه.

- أشرطٌ على مولاك! أنا من يقرر حاجتي من أسباب المتعة. وقد أحسنت في اختيارها، فحق عليّ الشكر لك. سلي ما تشائين تجابي.

- حقاً! فليكن الجزاء من نوع العمل.

مكتبة
t.me/t_pdf

أطلق ضحكة خفيفة ساخرة.

- فليكن إذن! غداً أرسل من يأتيك بجارية بديعة الأوصاف لتنضم إلى خدمتك! فنكون كفاءً.

أدركت أنه يسخر منها، فأحبت أن تجاريه في أسلوبه.

- لا نكون كفاءً حتى تكون هبتك إليّ عين هبتي لك!

- هل جننت يا امرأة؟

- نعم، هَبْها لي لتكون في خدمتي. ومن يدري، لعلي أفيد من ظرفها وعلمها وما يسلّيني في وحدتي مع انصراف السلطان عن زيارتي! أو... تعلمني شيئاً من تلك الفنون التي تسحر بها عقل الرجل حتى ينقاد لها وهو الذي يقود الناس بالإشارة! فمن الواضح أن جمال الخلقة لم يكن وحده عدتها، وإلا لاكتفى السلطان بالتمتع بها على المعنى الذي أردته حين أهديتك إياها!

- الآن جاوزت حدّك يا امرأة. لا تختبري صبري أكثر من هذا. أنت سلطانه نسبةً إلى السلطان لا على الأصل.

همّ بالخروج، فاعترضته، واستأنفت كلامها بلهجة جادة مباشرة:

- نشدتك الله يا سيدي أن تتدبّر كلامي. ليست غيرتي على الزوج فقط، ومثلك يُغار عليه، ولكن على السلطان في منزلته وعمله وقوته. وهذه الجارية تضعف شوكتك التي يخضع لها القوم طوعاً أو كرهاً. نعم، قد تختلط هيبة السلطان بالبطش، ويشتبه الحزم بالظلم. ولكن هذه طبائع السلطان، فإن خرج من ذلك إلى رقة القلب والرفق ولين الجانب خالط ذلك الضعف وتجرأ عليه من كان يخشى سطوته. ولا يغرنك مطلب الرضا من العامة، فإنك لا تُحصّل رضاهم إلا بإسخاط رجال دولتك وأعيانها. وهؤلاء، لا العامة وإن كانوا الأكثر، من يعينك إذا كانوا لك، أو يخذلك إذا صاروا عليك. فهم أهل الرأي والمال والعُدّة. وليس الخوف منك فقط ما يقيمهم على طاعتك، وإنما اجتماع غاياتهم ومصالحهم فيك. الخوف والرجاء معاً هما مناط الولاء والاستقامة على أمر السلطان.

- إن كنت تعنين واقعة السوق، فأنت تعلمين أيضاً أنها صدقتني فيما كذبوا عليّ. فأيّ الفريقين أحق بثقتي وتقديري؟

- ها أنت تجعلها أحد الفريقين! وهذا ما أخشاه على ملكك... جارية واحدة تصير فريقاً ينازع رجال دولتك في أمر من أمور الدولة. نعم، صَدَقَت وكذبوا... ولكن ما نفع صدقها إذا كان سيفسد عليك صدور أصحابك، فيغلب الضرر على المنفعة. وهذا الذي تجعله معارضة بين الصدق والكذب، له في دار الحكم أوصاف أخرى: الوشاية.. جارية غلبت على عقل السلطان فأطاعها وعصى رجاله، ثم نكّل ببعضهم وأخاف سائرهم. وما الذي فاجأك من كذبهم؟ فما زلت قبل ذلك تهزأ من نفاقهم، وهل النفاق إلا الكذب؟ ولكنه كذب من يخشى العقاب ويرجو الثواب من صاحب السلطان. وهذا كما قلت ما يقيمهم على الطاعة والولاء... الخوف والرجاء!

لم يعد راغباً في متابعة الجدال. فمضى نحو الباب من جديد، ولكنها لاحقته بكلامها:

- كان هذا كله واضحاً عندك، حتى جاءت هذه الجارية. فما سرّها! أهو الحب! إن كان كذلك، وهذا فعله في السلطان، فهو أقدر عليه من الحرب! ولكن ما بال هذا الحب قد ظلّ عذرياً حتى الآن؟ ومن صاحب الرأي في ذلك؟

أتبعت كلامها بضحكة ساخرة، ولكنه لم يجد ما ينفس به غضبه منها فآثر الخروج بينما بقيت ضحكتها الساخرة تتردد في ذهنه.

سرعان ما توارى غضبه العارض وراء زوبعة من التأمل والتفكير والمراجعة. هل كان كلامها كله خطأً؟! لو سُئل قبل أن يتسلط على الحكم ويتسلط الحكم عليه، لكانت إجابته قاطعة بخطئها التام في كل ما باحت به، بل ربما أخذ به الغضب فشتمها وشتم أباها وكل من كان على شاكلته من الأعيان وأهل السلطان، وازداد يقيناً بأن عليه أن يمضي في خطته لخلع السلطان المستبد السابق مع جملة حاشيته. أليس طلب العدل في الرعية ما حمله على تنظيم دعوته السرية في الجيش حتى تمكّن من تلك الغاية النبيلة؟!

ولو سئل بعد حين من الحكم، بل قبل أن تدخل تلك الجارية في حياته، لكانت إجابته أيضاً قاطعة بصواب ما قالته الخاتون. بل تلك كانت معاذيره التي يلقي بها إلى نفسه اللوّامة كلما استذكر ما كان فيه وما صار إليه.

فما الذي أخرجه الآن من برد اليقين، إلى حمّى الشك والحيرة، ودفعه إلى أن يزور حلمه القديم بدولة عادلة: الضعيف فيها قوي حتى يأخذ الحق له، والقوي فيها ضعيف حتى يأخذ الحق منه. ولكن، هل يستطيع رجل واحد مهما يبلغ من قوة النفس وصدق الغاية أن يفعل هذا بمفرده، بدون أن يعينه على ذلك رجال أقوياء صادقون يشاركونه الغاية؟ يذكره بعض الوعاظ بعدل عمر، وينسون أن عمر كان رجلاً في أمة من الرجال أمثاله. فأين رجال عمر كي يحتذي حذوه ويتأسى بمثاله. ألم يحاول حقاً في أول حكمه، وكان في شركائه وأهل مشورته رجال أقوياء حقاً، ولكن سرعان ما أفسدتهم السلطة. فالقوة تغري باستعمالها حتى يصير القوي محكوماً بقوته، وإن كان حاكماً، فإن لم يستعملها في الحق استعملها في الباطل

فطغى واستكبر. وهكذا كانوا، فما هي حتى ظنوا أن الحكم والدولة غنيمة لهم، اكتسبوها بالسيف، حين جازفوا بأرواحهم في خلع السلطان السابق فأهدفوا صدورهم لرماح عسكره. وما هي حتى تنازعوا أمرهم بينهم، كل حزب بما لديهم فرحون. فلما حاول ردعهم وردّهم إلى الحق تجرأوا عليه، وظنوا أنهم قادرون عليه، وطمعوا في الذي بيده. ولو أفلحوا في ذلك لما رضي أحدهم بحكم الآخر حتى يقاتله على الغنيمة. فأين تذهب الدولة عندئذٍ؟ بل ربما استقل كل منهم بقطعة من الدولة وأعلن نفسه سلطاناً عليها، ومع كل ذلك طمع الدول المجاورة المتربصة. فيحول الأمر إلى أسوأ مما كان عليه في حكم السلطان السابق. فهل كان عليه أن يصمت عن ذلك؟ وهل كان يملك خياراً آخر إلا أن يستعمل كل الطرق للتخلص منهم قبل أن يستفحل الأمر ويتسع الخرق على الراتق؟ وهكذا انقلب على رفاق الأمس، فألّب بعضهم على بعض، وأخذ ينتصر بأحدهم على الآخر، حتى إذا فرغ منه، انقلب على حليفه بالطريقة نفسها. بل ألزمه الحال أن يصطنع لنفسه عسكراً خاصاً من العبيد، وممن يرتزقون بسلاحهم من الأجانب، وفضلهم بالسلاح والتدريب والمال، وأقام شبكة سرية واسعة من العيون يترصدون له الأخبار والأسرار، ليقمع الخطر قبل حصوله. ولكن، من شأن العيون والجماعة السرية أن يتوسّعوا في المهمة التي فوّضوا بها، وأن ينتشوا بالسلطة التي صارت في أيديهم، فيخرجوا من الخبر المؤكد والدليل القاطع إلى الشك والظنة والشبهة، ومن الطامعين والموتورين القادرين، إلى عامة الخلق، ومن ترصُّد الفعل إلى ترصّد القول ولو كان طرفة تمس هيبة الحكم يطلقها بعض الظرفاء

ليضحكوا بها أصحابهم. وهكذا يتوسع معنى الخطر الذي يترصدونه والشبهة التي يأخذون بها ليحصوا على الناس أنفاسهم ثم يكتموها. وإذا كانت مهمتهم الأولى جمع الأخبار لنظر السلطان وأمره، فإن ضرورات السرية تغري قادتهم بأن يستقلوا بعملهم بقدر كبير عن السلطان نفسه. وما حاجتهم إلى أن يعرضوا عليه كل صغيرة وكبيرة فيصرفوه عن أعماله الأخرى؟ وربما شاور في ذلك بعض قادته ووزرائه، فتتسرب الأسرار إلى غيرهم، وكل ذلك يضر بعملهم ويفسد تدبيرهم. حسبهم أنهم أمناء على حفظ الدولة وهيبة الحكم. بل إن كبراء رجال الدولة أنفسهم صاروا محلّ النظر والرقابة وجمع الأخبار والأسرار. فما الذي يضمن أن يقيموا على الولاء وألا يغريهم شيطان السلطة بالانقلاب على ولي الأمر؟ ألم يحدث ذلك مع شركاء السلطان الذين واطأوه على خلع السلطان السابق، حتى إذا تم لهم الأمر غرّهم بأنفسهم الغرور وظنوا أن السلطان الجديد لا يقدر على شيء بدونهم، فنازعوه سلطانه، حتى تمكن من القضاء عليهم جميعاً واستقام الأمر كله له؟!

لم يكتف قادة العيون بذلك كلّه، حتى اصطنعوا سجوناً سرية مستقلة يأتون إليها بكل من تقع عليه الشبهة، فيُهدِفونه لكل أنواع التعذيب المروّع من الجلد والكي بالنار ورفع الرجل بالسلاسل منكوساً وغمر الرأس بالماء حتى يشرف على الاختناق غرقاً، ونحو ذلك مما تفننوا في اختراعه، ليعترف بالتهمة عن نفسه وغيره. وقد شاعت الأنباء أن من يؤخذ إلى تلك السجون ينقطع خبره. فإما أن يموت تحت التعذيب وإما أن يعترف بما لم يفعل مؤثراً موتاً سريعاً بالسيف على وجه العقوبة المستحقة.

لم يكن ثائر الأمس وسلطان اليوم يعلم بذلك كله على وجه اليقين وإن تحدث به الناس. والقليل الذي تناهى إليه من الكلام، آثر أن يتجاهله وأن يأخذ برأي وزرائه أنه من تشنيعات الخونة والموتورين وميل العامة إلى تصديق الإشاعات المغرضة. ورضاهم على كل حال غاية لا تدرك. وإن وقع شيء من ذلك فهو من الأضرار الجانبية التي يستحيل تجنبها في الحروب والمدافعات والمغالبات، مع أعداء الداخل أو أعداء الخارج. ولعله ثمن لا بد منه لدفع الأضرار الكبرى وردع أهل الشرور. وإذ لا عصمة لأحد، فمن شأن المجتهد أن يخطئ أحياناً. ولا سبيل للسلطان الأعظم أن يطلع على كل شاردة وواردة ويدبر كل شأن بنفسه. كما أنه لا يسعه أن يضع رقيباً على الرقيب. حسبه أن يأمر ويوجّه وينظر في النتائج الكلية. وقد استقام له الأمر أخيراً وانطاع الجميع لأمره. وحسبه من الأمجاد أنه استطاع بعد سنين أن يقهر عدو الخارج، ويرد للدولة هيبتها، ويسترجع الأراضي التي غصبها العدو في عهد السلطان السابق، بل زاد على ذلك فحاز على بعض أراضيه، وألزمه الخضوع والإتاوة السنوية.

نعم، حدث هذا كله في بضع سنين من حكم السلطان ركن الدين عبدالله بن سعد. ولكن، ما الذي تبقى من حلمه القديم في دولة العدل والرحمة والشورى؟ أين الصورة التي كان يتخيّلها عن نفسه حاكماً قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف؛ حاكماً يتعسس أحوال الرعيّة ويخالط الناس في الأسواق والأحياء لينصت إلى شكاواهم ومطالبهم؛ حاكماً يجلس للناس في ديوان المظالم ولا يحتجب عن صاحب الحاجة والسؤال؛ حاكماً يدعو إليه أهل الرأي

والدين فيسألهم أن يعظوه، فإذا فعلوا بكى حتى تخضّل لحيته بالدموع؛ حاكماً يأمن بعدله فينام في ظل شجرة؛ حاكماً لا يقتضي من الناس واجباتهم حتى يؤدي لهم حقوقهم؛ حاكماً لا يختص الضعيف بعقوبة الجرم دون الشريف؛ حاكماً يطلب من الناس أن يقوّموه إذا رأوا فيه اعوجاجاً؛ حاكماً يرفعه الله بتواضعه للناس.

أين ذهب هذا كلّه؟ وأين وقع الخطأ الذي دفعه في وجهة أخرى حتى انتهى إلى ما صار إليه؟ هل تخلى عن ذلك الحلم طوعاً أم كرهاً؟ حتى عهد قريب جداً كان قد توصل إلى جواب مريح بأن الخصوم والظروف قد ألزمته ولم تترك له خياراً آخر، إذ لم يجد له على الحق معيناً، وأن الشر في الدنيا هو الأكثر، وأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المنافع، وأن من تمام العدل في حكم الناس عليه ألا يقارنوا بين المفاسد القائمة والمنافع المنشودة، ولكن بين المفاسد الأقل التي لم يكن مناص منها، والمفاسد العظمى التي نجح في دفعها، وتلكم كما تبين له طبائع الحكم الغلّابة في الزمان الفاسد لا طبيعته هو.

نعم، كانت تلك معاذيره وتعلّاته حتى عهد قريب حين دخلت هذه الجارية قمر في حياته، فأضاءت عتمة ليله وهزّت يقينه بحاضره، وبعثت في نفسه طيف حلمه القديم، حتى وجد نفسه موزعاً بين طبيعته القديمة وحلمه القديم من جهة، وطبائع الدولة التي تطبع بها كرهاً وصوّرته على مثالها، من جهة أخرى. ما هذه الفتاة الرائعة التي ساقها القدر إليه؟ هل هي نعمة أم نقمة؟ كيف له أن يكون الدولة والحلم معاً: دولة السلطان وحلم العامة! الحلم الذي يريد أن يكون دولة، والدولة التي تعاند الحلم، بل لا تستطيع أن تنام لتحلم! يدرك الآن أنه يلتقي مع مبغضيه من عامة

الناس في الحلم ويفترق معهم في الدولة، بينما يلتقي مع معاونيه في الدولة، ويفترق معهم في الحلم. فكيف استطاعت تلك الجارية أن تجعله ملتقى الأضداد، ليجد بعضه يحارب بعضه! وليتساءل: ماذا عساه أن يفعل لو رجع به الزمان إلى ما قبل وصوله إلى الحكم؟ ربّما آثر أن يظل مقيماً في حلمه القديم بين العامّة، ولا يرمي بنفسه في أتون هذا الاختبار المخيف. فالحلم الذي يبقى مقيماً في الروح والفؤاد، أجمل وأهون من الحلم الذي يدمره الاختبار إلى الأبد! حسبه من الدنيا أن يكتري أرضاً يفلحها، وأن يتزوج فتاة مثل قمر؛ لا يجمع بينهما إلا حب لا شرط عليه، ولا تلتبس فيه النعمة بالنقمة، ولا القوة بالضعف.

ولكن، ماذا عن الآن؟ أهو الحب كما تساءلت الخاتون؟ حتى الآن، مع كل المشاعر التي تنامت في نفسه نحوها، والشوق الذي صار يراوده، والحاجة التي تدفعه إليها دفعاً، تجنّب أن يمنح ذلك كله اسماً. ولكن، إن لم يكن هذا هو الحب، فما هو؟ فليعترف إذن بينه وبين نفسه أن قمر كانت عل حق حين جادلته في لقائهما الأول عن الحب والقلب، وأن المرأة، سواء أكانت حرة أم جارية، قد تؤخذ بالسيف والمال، ولكن لا يفوز بقلبها إلا من كان له قلب تفوز به. وليس وراء ذلك إلا الشهوة الحيوانية الخالصة التي يستوي فيها الإنسان والحيوان. فمن استغنى بذلك فقد استغنى عن سموّه الإنساني ولو كان الملك والسلطان. نعم، قد ردّت تلك الجارية له قلبه، فاكتمل به، وعلم أنه لا يتملكها حقاً إلا بكمال قلبها وجسدها معاً، وإن كانت فيما عدا ذلك جاريته وملك يمينه. وذلك كله يجمعهما على صعيد، فلا ملك ولا مملوك، فقط رجل وامرأة. وليكن

أن هذا ربما كان في حال السلطان قوة وضعفاً، ونصراً وهزيمة في آنٍ، وليعتقد من شاء أن اكتمال إنسانيته بقلبه، ينتقص من سلطانه! وإذ ردّت له قمر قلبه، فها هو حلمه القديم يراوده من جديد، فهو الآن يتمنى أكثر من أي وقت مضى أن يجد طريقة يسترد معها حب الرعيّة التي من أجلها ارتقى الحكم، وإن كانت لا تعتقد ذلك الآن... العامة التي لا يعرف وجوهها ولا أسماءها... العامة التي أحبته أول الأمر وأبغضته آخرَه... العامة التي يعلم أنها تقوم الليل تدعو عليه بعد أن كانت تدعو له... العامة التي ترجو زواله الآن للأسباب نفسها التي جعلتها ترجو بقاءه أول الأمر. أما بطانته وحاشيته فإن من يحرص منهم على بقاء ملكه فإنما يحرص على نفسه. فلو أمن أنه لا يخسر بذهابه شيئاً أو أنه يكسب به أكثر مما عنده، فلا يهمّه أن يختفي الليلة، بل ربما إذا أمن العاقبة تآمر عليه.

حين بلغ هذا الموضع في تأملاته شعر بحرارة لذيذة تسري في جسمه كحال الإنسان إذا خرج من محبس معتم إلى الشمس لأول مرة منذ عهد طويل، أو كحاله حين يريح صدره المثقل بالبوح. ولكن صوت «الطواشي» المفاجئ من ورائه أفسد عليه خلوته وسكينته المؤقتة.

- مولاي.

التفت إليه بوجه منقبض وتحدث بصوت متبرّم:

- ما شأنك؟ لم أرسل في طلبك.

- أرسلني حاجبكم في خبر لا ينبغي أن يتأخر على سمع مولانا المعظّم.

تنبهّت حواسه الآن، واعتدل في جلسته:

- قل ثكلتك أمك!

- جاريتكم الجديدة قمر!

اهتز قلبه وجوارحه الآن على الرغم منه، وغلبته اللهفة والقلق على نفسه وصوته، وانتصب على ساقيه.

- ما بها؟ هل أصابها سوء؟ قل...

أجاب الطواشي بصوت مضطرب متردد:

- تعلم يا مولاي أن سلامة مولانا هي الغاية المقدمة عند أهل خدمته. وقد ألزمهم ذلك أخذ الحيطة والتحقق من كل شخص يخالطه أو يدخل في خدمته، لا يستثنون أحداً... فمن مأمنه يؤتى الحذر.

هنا فَقَدَ السلطان صبره، فصاح بالرجل:

- دعك من هذه المقدمات السقيمة أيها الأحمق... وهات ما عندك.

- تتبع القوم خبرها وأحوالها قبل أن تنضم إلى حريم السلطان، فعلموا أنها لم تكن سبية ممن يتناقلهم تجار الرقيق عبر البلاد، وإنما سباها واسترقها بعض عساكر السلطان فتاةً صغيرة في إحدى غزواتكم المظفرة، بعد أن قتلوا أبويها أمام ناظريها. وكانت من أسرة مؤصّلة طيبة الحال. فنشأت على الحقد وطلب الثأر لو استطاعت ممن تراه السبب والأصل. وقد سُمِعت وهي تفصح

بذلك مراراً. وكان الآخرون يعجبون من جرأتها. فإذا نهرها عن ذلك قالت إنها لا تأبه بالعاقبة، بل ترجو أن تلحق بأبويها، فما طيب العيش بعدهما وبعد استرقاقها وهي قبل ذلك الحرة ابنة الأحرار. هذا ما كان من خبرها يا سيدي، وهي الآن عندك. ولا نأمن منها عليك وهي قريبة من طعامك وشرابك ودوائك وفراشك، وتدخل عليك إن شاءت في نومك وصحوك. والأمر كلّه إليك يا مولاي.

استدار السلطان عنه ليخفي أثر الكلام في وجهه، وضجّ رأسه بطنين مُدَوٍّ، وشعر أنه يغرق في يَمٍّ عميق. ولكنه تمالك نفسه، وتحدث الآن بصوت خفيض:

- أهذا ما عندك؟

- هذا ما أُرسلت به يا سيدي.

مرّت لحظات صمت ثقيلة، قبل أن يلتفت السلطان إلى الطواشي من جديد وعيناه تقدحان شرراً، وتحدث بغضب جارف:

- هل أمرتُ أحداً في أن ينظر في أمرها؟

تلجلج الطواشي قبل أن يجيب بصوت مضطرب:

- لا أدري يا سيدي... ولكن هذا ما أملاه الواجب... أعني...

- كما أملى عليهم أن يكذبوا عليّ في خبر السوق حتى فضحهم الله. وحتى لو صدقوا في هذه أَوَقد بلغ بهم أن يتجسسوا على حريمي وخاصة خاصتي بدون أمري وعلمي؟ هذا ما يجب أن

أخشاه على نفسي وعلى ملكي... الآن يحاولون الإيقاع بجاريتي لسبب معلوم، ولكن بخبر مجهول لا نعلم صدقه من كذبه. فإذا فشل تدبيرهم هذا، فما عساهم يفعلون غداً؟ ولا والله ما ابتغوا بهذا سلامتي وحفظ ملكي. وإن كان ثمّة نيّة للثأر في هذا كلّه، فهي في نفوسهم. والآن عد إلى الحاجب فقل له: إن السلطان ينذركم ألا تعودوا لمثل هذا أبداً، وإلا نالكم منه عقاب شديد.

مضى الطواشي نحو الباب، ولكن السلطان استوقفه من جديد، فاستدار بوجهه:

- أنصت. أعد على الحاجب قولي هذا: إن السلطان إذا لم يأمن على نفسه من أهل بيته، فقد غدا وليس له أهل ولا بيت. ومن كان كذلك هانت عليه حياته، فلا كان ولا كانت سلامته. هل وعيت قولي؟ ... وقل له أيضاً: منذ الآن، إذا زلقت قدم جاريتي تلك لأي سبب فأضرّ بها ذلك، فسوف أتهمه ومن معه بتدبير الأمر.

انحنى الطواشي بإجلال وتراجع بجسمه خارجاً، وقد ازداد يقيناً بالخطر الذي تمثله جارية بلغت من سيدها أنه جعلها من خاصّة أهله، فهانت عليه سلامته في جوارها، كما تهون حياته بفقدانها سواء.

6

إذا كان من الطبيعي والمتوقع أن تنقم الخاتون وأكابر البطانة على قمر لما ظهر لهم من تأثيرها في رأي السلطان، كما تجلّى في واقعة السوق وعواقبها، فإن الذي لم تتوقعه قمر أبداً، أن يوافقهم في الإنكار الشديد عليها طرف ثالث، يفترض أنه أشد الناس عداوةً لهم، وأحبّهم لها، وأكثرهم إشفاقاً على ضحايا الحكم من العامة. فحين كان السلطان يتلقّى خبرها من الطواشي، كانت تقصّ على صاحبها عليّ بن الحسن، بكل تلهف واندفاع واعتزاز، أخبار عملها مع السلطان في شأن واقعة السوق، وهي تحسبُ أنه سيثني عليها أعظم الثناء أنّ تدخلها أدى إلى فضح المتواطئين ومعاقبة المتورطين، وإلى إنقاذ عشرات المساجين المظلومين، وإلى مواساة المفجوعين. ولكنها بدلاً من ذلك فوجئت به تنقبض ملامحه، وسمعته يدندن مشيحاً عنها:

- يا لعقول النساء! يا لعقول النساء!

لم تصدّق سمعها، وأخذت تتفحّصه بحيرة وتعجب:

- ما للنساء وعقولهن؟

التفت إليها، وبدأ يتحدث بنبرة غاضبة:

- إذن، فأنت من دبّر وقدّر وأشار على الطاغية أن يتدارك الأمر قبل استفحاله، وأنت تحسبين أنك بذلك تحسنين صنعاً.

- وكان يحسن أن يستفحل؛ فيُقتل المساجين المظلومون وينجو القتلة المجرمون؟

- كيف أُفهِمك هذا؟

- حاول. لن يعجزك منطق الرجال!

- متى يثور الناس على الطغيان؟

لم ينتظر جوابها واستأنف مجيباً بنفسه:

- حين يتعاظم الظلم والبؤس والشقاء والجوع والذلّ، ولا يأمن الرجل على نفسه وأهله في بيته، فتستوي عنده الحياة والموت، ويظن أنه لا يخسر بالموت شيئاً. وقد كانت العامة مهتاجة لما حدث في السوق، حتى غاب رادع الخوف عند الكثيرين، وأخذوا يحدثون أنفسهم بالثأر والثورة، لا يبطئهم إلا أن يجدوا قائداً يجمعهم. وهنا كان عملي وخطتي في تجنيد المزيد من الرجال، حتى أفسدت عليّ الفرصة السانحة برأيك عند الطاغية، فعمل على تهدئة الخواطر وإطفاء النار التي كان يمكن أن تشتعل به. وبذلك صنعت له جميلاً عظيماً، وأديت له خدمة جليلة. فهل أنت معه أم معي؟

- لا أصدق ما أسمع! أكنت تريدني أن أكتم عنه الحقيقة التي حجبها عنه أعوانه، فأكون كمن تواطأ معهم على الجريمة، وأتركهم يقتلون الرجال الذين تقبضوا عليهم ظلماً، ثم يفلتون من العقاب؟ أهذا رأيك؟ أهذه خطتك؟ فليمت مائة رجل بريء في وسعنا أن

ننقذهم، فوق الذين قُتِلوا في السوق كي يزداد الناس نقمةً فينضموا إلى دعوتك؟

- هذا ما عنيت بعقول النساء. تغلب عليها العاطفة، فتقدم القليل العاجل على الكثير الآجل. هل سمعتِ بقوم خرجوا على سلطان طاغية ولم يقدموا آلاف الضحايا قبل أن يتغلبوا عليه؟ وأن ننقذ شعباً بكامله أولى من أن ننقذ مائة رجل بريء. وعلى تلك الغاية كان ذهابك إلى قصر الطاغية. أم نسيتِ؟

- وهذا منطق الرجال ذوي العقول الكاملة؟ إذن اسمع منطق النساء ناقصات العقل. أما الضحايا الذين يُقتَلون في الحرب على الطغيان فإنهم يقدمون على ذلك بملء إرادتهم. وأما أولئك المحبوسون الأبرياء فلم يستشرهم أحد في مصائرهم ليضحوا بأنفسهم عن بيّنة في سبيل الهدف العظيم. وما كنت لأتركهم يُقتَلون ظلماً وفي وسعي إنقاذهم، فأكون شريكة في دمائهم.

- قلت: لن تفهمي رأيي.

قالت بحزم:

- وقد صدقت.

تحرك في مكانه نافخاً بضيق، ثم ارتد إليها:

- كأني بالقاتل قد خدعك عن نفسك؟

اهتزت قليلاً قبل أن ترد:

- كيف قلت؟

- هل تعتقدين حقاً أنه قد أجاب رأيك لأن ضميره قد صحا فجأةً فأخذته الرأفة وطلب الإنصاف؟ إنما فعل ما فعل من أجل نفسه، نقمةً على من خدعه من رجاله. ولربما لو صدقوه من أول الأمر لوافقهم على تدبيرهم. فإن لم يكن، فلعله قد أدرك ما أدركت أنا من أن الخرق بدأ يتسع على الراتق، فآثر تهدئة الخواطر التي كنت أوثر أنا أن تشبّ وتشتعل. اتفق الفهم واختلف الطلب.

علقت بنبرة ساخرة:

- ربما، فكلاكما له عقل رجل!

تجاهل تعليقها وتابع:

- أم أن المخالطة وقرب الوساد...

تريّث لحظة إذ اهتزت ملامحها لعبارته الموحية عن قرب الوساد.

- أم أن المخالطة قد أرتك منه جانباً آخر حجب عنك صورة الطاغية المتسلط التي لا يرى الناس غيرها حقاً وصدقاً وكنت لا ترين غيرها معهم؟ ومن قال إن الطاغية يتصرف في أهله ومأمنه كما يتصرّف في رعيّته ودولته؟ فهو فيمن يحب من أهله كأي رجل... يسهر على مريضهم، ويبكي على ميتهم، ويقاسمهم الطعام والشراب، ويتبادل معهم النوادر والطرائف، وإذا غاب عنهم استبد به الشوق إليهم، وربما فاض بالشعر الرقيق.

اقترب منها الآن حتى صار وجهه أمام وجهها مباشرة، واخترقت نظراته عمق عينيها وتابع بلهجة متأنية:

- وهذا أشد ما أخشى عليك... وربما منك. فأن يراك من خاصة أهله فذلك ما كنا نبغي من أجل غايتنا، ولكن احذري... احذري أن يغرّك عن نفسك فتري نفسك من أهله!

تبادلا نظرة عميقة صامتة، قبل أن يبتعد قليلاً ويتابع:

- فإن راودك شيء من ذلك في لحظة ضعف... عند... لمسة حانية مثلاً... أو موقف من مواقف الشهامة... فاذكري الأصل الذي جئت منه... اذكري مشهد قتل أبويك واسترقاقك... وتخيّلي مثل ذلك مع ألوف الناس. واذكري أن ما أجابك إليه من عمل عارض تستحسنينه لم يغير شيئاً من عموم الحال... فما زالت السجون مكتظة، ومعها أصناف التعذيب... وما زال القتل في الناس.. والفقر والمُكوس والذل... وما زال كثير من الناس ينتظرون خبراً عن أبنائهم المفقودين... وما زالت عيون السلطان تترصّد وتراقب حتى صار الرجل يرقب كلامه أمام أهله وولده، يخشى أن يُؤتى من أحدهم. لا... لم يتغير شيء... ولن يتغير حتى نغيّره. وحتى لو ظننت بالسلطان بعض الخير، فاذكري أن الدولة الظالمة ليست رجلاً واحداً وإن علا وتكبر واستبدّ بالأمر... فحتى لو ذهب السلطان الليلة، فإن إرثه الثقيل يبقى قائماً... العسكر والشرطة والعيون ووعاظ السلطان وقضاة السوء، وكبار التجار المتواطئين، والأعيان الذين أقطعهم أراضي البلد وسخّروا الفلاحين أقناناً عندهم بالسوط والعصا. هؤلاء جميعاً أعداء الأمة مع كبيرهم الذي علمهم السحر. فاذكري هذا كله، ولا تضِلّي عن الطريق فتشْقيْ وتُشقي. والآن عِديني بأن تقيمي على عهدنا هذا حتى يتم لنا الأمر، مهما تَرَيْ من وجهه الآخر.

أطرقت لحظات، ثم رفعت رأسها تنظر إليه:

- أعدك بقدر ما أستطيع... على أن تعدني أنت.

- بماذا؟

- إن تم لك الأمر..

يقاطعها مصححاً:

- لنا...

- إن تمّ الأمر، وظفرت بالسلطان حياً، ألّا تقدمه للقتل، فإما أن تكتفي بنفيه من البلد، أو تنزله في دار تقيم عليها حرساً إن شئت، وتجري عليه رزقاً وتحفظ له كرامته.

نزل الكلام عليه كالصاعقة. وأخذ يتملّى فيها واجماً متفكراً...

- هذا ما كنت أخشاه... هذا أثر المخالطة و... نعم... قربُ الوساد!

- دعك من هذا... فإن العهد الذي بيننا والوعد الذي تطلبه الآن مني بحفظ العهد، يقتضي مني أن أعينك عليه بما ينقض أثر المخالطة و... قرب الوساد، إن شئت. وحسبي من أثر المخالطة ما طلبت أن تعدني به. وعد بوعد.

أطرق يفكّر بضع لحظات، ثم رفع رأسه:

- وماذا إن لم يتم الأمر، وظفر هو بي حيّاً؟ هل سيكون في وسعك أن تجنبيني القتل؟

- إذا افتضح أمري فلسوف نقتل معاً. وإلا فلسوف أبذل كل ما في وسعي لأجنبك القتل.

- إذن أستوي وإياه في احتمالات المصير!

بقيت صامتة تنتظر قراره... ثم تحدث:

- لا بأس... أعدك. والآن عديني!

- أعدك.

هز رأسه محافظاً على وجومه، وتأهبت لمفارقته، وبعد أن ابتعدت عنه بضعة أمتار، سمعته يناديها:

- قمر!

توقفت والتفتت إليه من مكانها.. بدا متردداً يقلّب بصره بين الأرض والفضاء، متجنباً النظر إليها مباشرة. ثم تحدث أخيراً:

- لا ندري متى ينقضي هذا الأمر على أي وجه يكون، لنا أو علينا. وأنا بعد رجل مثل كل الرجال... أعني... إنها الفطرة والغريزة التي ركّبها الله فينا... وأنا مقيم على محبتك ما حييت... ولكن حتى يحين الوقت...

قاطعته وقد فهمت مراده:

- نعم، حقك أن تتزوّج أو تتسرّي. لا حرج.

- هذا لا يغير من رغبتي فيك، ورجائي أن يجمع الله بيننا بخير.

- قد خرج الأمر من أيدينا إلى أمر الله.

هز رأسه موافقاً واجماً، وتلبّث واقفاً في مكانه، بينما تابعت مشيها مبتعدة عنه.

صدمها الموقف على الرغم من أنها كانت تتوقعه وتتفهّمه. ولكنها لأمر ما لم تشعر بضيق ولا غضب، بل شعرت بخفة وراحة في صدرها، وغشيها شعور غامض بشيء من الحرية!

* * *

وصلت القصر مع غياب الشمس. وحين دخلت جناحها الخاص وهي تحمل مصباحاً صغيراً لمحت ظلاً يتمدد على الأريكة. خفق قلبها حين تبيّنت أنه السلطان.

- مولاي!!

لم يتحرك في مكانه إذ خاطبها بصوت هادئ:

- اقتربي يا قمر.

- عساك بخير يا سيدي.

أشار إلى حشية مرتفعة إلى جانب الأريكة لتجلس عليها... ففعلت وهي تدقق النظر فيه بينما تابع النظر إلى السقف. وران صمت ثقيل.

- كأنه قد أهمّك شيء يا سيدي.

تأخر لحظات أخرى من الصمت، ثم تحدث بنفس الصوت الهادئ المشوب بالغموض دون أن يغيّر من ضجعته أو يلتفت إليها مباشرة.

- هل هناك ما كان ينبغي أن أعرفه عنك يا قمر؟!

دق قلبها بشدّة حتى شعرت بأنه صار مسموعاً وأنه يغالب ليخرج من صدرها. وذهب تفكيرها إلى علاقتها بعلي بن الحسن، هل افتضح أمرها مبكراً؟ ولكن كان عليها أن تتمالك نفسها ما استطاعت، فجاهدت صوتها على الخروج، فأبى عليها أولاً، حتى خرج أخيراً مرتجفاً مضطرباً.

- لم أفهم القصد يا مولاي. وهل في سيرة الجارية ما يستحق القصّ وهي التي لا تملك أمرها؟ فحياتها ما يصنع بها مالكها...

- أعني قبل ذلك... لا يخطر لنا أن نسأل عن الأصل الذي جاءت منه... ولا كيف صارت إلى السبي... وما كانت قبل ذلك... وكأنها نبتت من الأرض أو سقطت من السماء، كما قلتِ أنت في اللقاء الأول، أو كأن حياتها قد بدأت فيما انتهت إليه. لم يخطر لي أن أسألك عن هذا كله يوماً...

أطرقت واجمة حائرة تفكّر في مغزى السؤال وأسبابه، ولأول مرة يلتفت برأسه إليها دون أن يغير ضجعته، ويتفحصها بنظرات عميقة تجنبت أن تقابلها ببصرها. وأجابت بصوت خفيض يشوبه الحزن:

- وما الذي دعا مولاي إلى السؤال الآن؟

تريّث لحظة ثم أجاب:

- ربما لأنك صرت عندي أهم وأعظم مما تكون الجارية... لم تعودي مجرد صورة جميلة أو متاع جميل... والاسم الذي أعطي لك

حين ولدتك أمك... سلمى... عدتِ فاكتسبته بنفسك عندي... إذن... حدّثيني يا... سلمى!

هنا رأى دموعها تنحدر من عينيها بغزارة وبصمت. بكت لسببين متعارضين متفارقين، أولهما ما بعثه الكلام من صور حياتها الأولى فتاة صغيرة حرّة في ظل والدين رائعين حباً وحناناً وخُلُقاً، وثانيهما ما باح به هذا الرجل من عواطف جميلة ردّتها إلى أصل طبيعتها والفطرة التي فطرت عليها: فتاة لا تتعرّف إلا بذاتها وإنسانيتها كأي فتاة حرّة، تَعْشَق وتُعْشَق وتعطي وتأخذ وتفرح وتحزن، وقد ينكسر قلبها أو تكسر قلب إنسان آخر... يخيب ظنها وقد تخيب هي ظن الآخرين. ولكن، أي مفارقة هذه! فالرجل الذي باح بتلك العواطف التي ردّت إليها نفسها، فبكت تأثراً بها، هو نفسه السلطان الذي حرمتها عساكره من والديها وحريتها وحياتها الأولى الجميلة، فبكت الآن على ما فقدت من ذلك الماضي. فبكاؤها الآن على ما أخذ من ماضيها، وعلى ما أعطاها الآن من عواطفه. وتلكم مفارقة عظيمة لا تدري كيف تتعامل معها، سوى أن دموعها لم تتوقف، ثم تحولت إلى نشيج عميق مستمر. مدّ يده وأخذ بيدها بلطف وحنان، ثم اعتدل من ضجعته ومدّ يده الأخرى وأخذ يمسح دموعها برقة آسرة.

- خفّضي عنك يا سلمى.

تحدثت الآن وهي تغالب شهقاتها:

- سؤالك سؤال العارف يا سيدي... فما حاجتي للكلام!

قام الآن من جلسته وبدأ يتمشى في المكان وقد ضمّ يديه إلى الخلف.

- لا ألومك إن كنت تنقمين عليّ. ولكن أنصتي إليّ جيداً.

أخذ نَفَساً مسموعاً واستأنف:

- ما زال السلاطين يشنون الحروب للأسباب كلها، عدلاً أو ظلماً، دفعاً أو طلباً. فينتصرون أو ينهزمون. وليس المهزوم بأقل قسوةً من المنتصر ولا إقداماً على البطش والسبي لو استطاع. على أن بلدي لم يكن البادئ في العدوان. فحين تولّيت كان نهباً للغزاة، وكان ذلك مما ألزمني خلع السلطان السابق لتهاونه وجبنه. أسدٌ على رعيّته، ونعامة أمام الغزاة. ثم جاهدت العدو جهاد الدفع أولاً حتى أخرجتهم من الأراضي التي انتزعوها غصباً، وانتصفت لبلدي وشعبي مما ألحقوه بنا من الذل والمهانة والقتل والنهب والسبي، والبادئ أظلم. ولكن القاعدة بين الدول أن الحرب سجال، فيوم لك ويومٌ عليك. ولذلك لا يسكن العدو بعد هزيمته وإن سكنتُ عنه. فما زال يدبّر ويحشد ليعيد الكرّة، فكان على القائد الحازم أن يجعل قتال الطلب وسيلة الدفع، فيبادر إليهم في عقر دارهم قبل أن تستعظم قوتهم فيبادروا إليه، وهذا ما فعلت. فإما أن أغزو وإمّا أن أُغزى. إنها طبائع الحروب والدول يا سلمى، وليست ثارات أناس يعرف بعضهم بعضاً بأعيانهم وذواتهم. السلطان لا يعرف أسماء من يذهبون ضحايا تلك الحروب، من الخصوم أو من قومه سواء. أنا لم أكن أعرف أبويك ولم أدبّر لهلاكهما... رحمهما الله، فأكون واتراً بدمهما. ولا ريب عندي أن صاحب بلدهما لم يسمع بهما

أكثر مما سمعت أنا، ولم يذرف عليهما دمعاً أكثر مما ذرف على قتلانا. فإن كان لا بد فإن الذي قتلهم هو الحظ السيئ، وأنه اتفق وجودهما في المكان الخطأ، أو أنها الأقدار المقدورة وطبائع الحروب. وكوني على يقين أن ثمة فتاة مثلك من أهل هذا البلد، كانت حرة في أهلها، وهي الآن مملوكة عند رجل ما في بلد العدو، ولا ندري فلعله وضيع الخلق غليظ الكبد، فتلقى منه ما تلقى من الذل والمهانة.

لم تتوقف دموعها وهي تنصت مطرقة برأسها:

- كان قتلاً لا قتالاً يا سيدي، لم نكن في ساحة القتال، ولم يكن لنا فيما يجري ناقة ولا بعير.

- أعلم. وقد لا تصدّقين الآن أني أشعر بالأسف والأسى. فقد صار لأبويك عندي الآن وجهان يتمثلان في مخيلتي إذ أنظر إليك وأرى دموعك، وأشعر ببعض ما تشعرين به. فالذي يحادثك الآن ليس السلطان، وإنما الرجل عبدالله بن سعد الذي وقعت فتاة اسمها سلمى في قلبه على غير تدبير منه ولا إرادة. فيضره ما يضرّها، ويسعده ما يسعدها، ويحميها بنفسه ودمه. ولكني لم أكن مع أولئك العساكر، ولم آمر بما فعلوا، ولو كان في وسعك أن تميزيهم لقتلتُهم بوالديك وأهل قريتك المسالمين.

تريّث لحظة، بينما ضج فؤادها بمشاعر مختلطة، وراودها في نفسها السؤال: لماذا يجعل هذا الرجل الأمور أشد صعوبة وتعقيداً عليها حتى كأنّ بعضها ينازع بعضها فلا تدري على أي جنب تميل بينما تتجاذبها الرياح من كل جانب. ليت الحياة خيار بين الحب الخالص والكره الخالص، أو بين الليل الحالك والنهار الواضح!

- ليتني أستطيع أن أصوّب الخطأ، أو أغيّر المقادير، ولكني لا أستطيع. نعم أتمنى ذلك حقاً رأفةً بك وإشفاقاً عليك، ومحبةً لك، ولكن العواطف نفسها التي تملي عليّ هذه الأماني المستحيلة، تملي عليّ أيضاً، على غير إرادة مني، أن أحمد الله على أن وهبني إياك، وإن كان السبيل إلى ذلك مما يوجع القلب. ولو أني بقيت من أغمار الناس وعامتهم، ولقيتك في مكانٍ ما، لجريت وراءك إلى آخر الأرض، وبذلت كل ما يقدر عليه العاشق الصادق لأفوز بك، وإلا قضيت العمر شقياً بحب لا شفاء منه.

هزتها كلماته من الأعماق، فما سمعت من رجل قط أجمل من هذا. وما كان عندها أدنى شك في صدقه. ولأول مرّة تنظر إليه خَلَل دموعها، وقبل أن تخاطبه خاطبت نفسها: «وأنا أيضاً، لو لقيتك وكلانا من أغمار الناس وعامتهم لوقعت في غرامك من فوري، ورجوت أن تجد في قلبك نحوي كالذي أجده نحوك، وإلا عشت شقية بحب لا شفاء منه، وهانَ عندي كل الرجال».

- الآن وقد عرفت هذا عني يا سيدي، فكيف تأمنني على نفسك؟ ألا تسرّحني سراحاً جميلاً فتريحني من جمال أشد عليّ من القبح، ومن حبّ أثقل وأوجع من الكره؟

- أسرّحك فأسرّح روحي وراءك؟ أعتقك وقد استرقّني حبك. ألا ترين؟ كلانا الآن مملوك ومالك. إن كان في وسعك فاكرهي السلطان، وأحبّي عبدالله بن سعد. فأنا مثلك الآن أضيق بالسلطان من أجل عبدالله بن سعد وما يهوى قلبه.

- وتأمنني على نفسك؟

ابتسم ابتسامة شاحبة وتحدث:

- سبحان الله. هذا قول الخاتون والحاجب والطواشي اللعين.

- هم أخبروك بأمري، وعرفوا أني كنت أُفصح عن حقدي وعداوتي قبل قدومي!! وما ذاك إلا...

أكمل عنها..

- حسداً من أنفسهم، وخوفاً على منازلهم بعد أن عرفوا منزلتك عندي. وانتقاماً منك على ما كان منك معي في واقعة السوق. ولكن هل تعلمين كيف أجبتهم؟ أنذرتهم بعقاب شديد إن عاد بعضهم إلى التجسس على خاصة أهلي. ثم قلت ما أقول الآن لك: إذا لم يأمن السلطان على نفسه من خاصة أهله، فقد بات وليس له أهل ولا بيت، فحياته وموته سواء. وما همّه أن يموت على يد محبوب في جواره، إن كان البديل أن يموت حسرة على مفارقته؟

تبادلا نظرة عميقة، ولم تخف هذه المرة من شعور الحب الذي داهمها... وحدّثت نفسها: «فليكن كما قال. هذا عبدالله بن سعد، لا السلطان. قاتل الله السلطان الذي يحجب كل رائع وجميل».

ولأول مرة منذ بدء هذا اللقاء، وجدت نفسها تتحدث بنبرة رائقة لا اضطراب فيها.

- وما قالوا لك أيضاً!

تريث لحظة قبل أن يجيب:

- أنّ عواطفي نحوك تضعف رأيي وهيبتي باعتبار السلطان والدولة وأعواني. هذا ما تجرأت الخاتون على قوله.

- وما رأيك أنت؟

أجاب بلهجة مشوبة بالسخرية:

- يبدو أنها محقة بعض الشيء!

اهتزت ملامحها قليلاً، بينما أطلق ضحكة خفيفة وتابع:

- والدليل على ذلك أنها تجرّأت عليّ بالقول لأول مرة، وعلا صوتها فوق صوتي.

صمت لحظة، ثم تابع بنبرة تأمّلية كأنه يخاطب نفسه:

- لماذا يجب أن تكون هيبة السلطان وقوته ملازمتين للقسوة والظلم؟ لماذا يجب أن ينتقص الحب والرحمة من قوة السلطان؟ لماذا يجب أن يتوارى الفتى القديم عبدالله بن سعد وراء حجاب السلطان؟ أين المثال الذي كنت أرجو أن أحتذيه وأنا أدبّر لإنقاذ البلاد والعباد من السلطان السابق؟ قوة من غير عنف، ولين من غير ضعف؟

اكتسى وجهه بتعبير الحزن والشرود... ومرّت لحظات صمت بينما أخذت تتأمّله بنظرة عميقة وتعاطف صادق، فقد أحست حزنه وحيرته وصدقه. وأدركت أنه محكوم بسلطانه بقدر ما صار حاكماً. ولأول مرة وجد نفسه يفيض لها بما يحدِّث به نفسه. فقصّ عليها أسباب عمله على خلع السلطان السابق، وأحلامه القديمة بدولة العدل والرحمة والشورى، ثم كيف ألزمته الظروف التي لم تكن في حسبانه أول الأمر أن يمضي في طريق آخر لدفع الأضرار الكبرى بالصغرى. وكيف ظن أن هذا ضرورة مؤقتة من أجل الغاية النبيلة،

فإذا انقضت الضرورة رجع عنها وثاب إلى الحق كلّه بطرقه وغاياته معاً، حتى إذا أوغل في ذلك الطريق وجد أنه وصل إلى موضع لا يمكن الرجوع عنه إلا أن يتخلى عن سلطانه طوعاً، ولا يفعل حتى تدخل البلاد في فوضى أشد نكيراً وأدعى إلى سفك الدماء وذهاب الأوطان. كما أن تخلّيه يعني هلاكه حتماً. فما كان خصومه الموتورون ليتركوه في سلام وقد تجرّد من شوكته وسلطانه.

أنصتت إليه بكل حواسها وعقلها ووجدانها. وحين فرغ أطلق نَفَساً عميقاً مسموعاً وكأنه أزاح عن صدره ثقلاً عظيماً بذلك البوح. وبدون وعي وجدت نفسها تمسك بيده تعاطفاً معه. وفاجأها خاطر غريب على عجل: إذا كان هذا الثائر القديم لا يملك أن يحرر نفسه من أوزار السلطان الحاضر التي تنغص عليه عيشه، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يتحرر من مثال الثائر القديم الذي ما يزال يطارده ويحاسبه، فإن ثورة ينهض بها غيره، على شرط نجاته فرداً، يمكن أن تحرره، مع سائر الرعية، من عذاب نفسه ومن عذاب الله على مظالم حكمه مهما تكن ذرائعها. وعلى كل حال فإن الفوضى المدمرة التي يخشاها على بلده فتردعه عن ترك الحكم، واقعة لا محالة مع انقضاء أجله إن لم يرزقه الله ولياً للعهد في وقت مناسب. فهو لم يُرزَق حتى الآن إلا إناثاً. وإذن فإن الثورة عليه هي ثورة له في آن.

كان خاطراً عجيباً حقاً. ولكنه لم يكن بعيداً عن مقتضى الحال. وكان مريحاً لها. بل غمرها منه شعور جديد ببعض الحرية شبيه بالشعور الذي خلّفه فيها كلام علي بن الحسن عن نيته الزواج! وهنا وجدت نفسها تضغط على يد السلطان... عبدالله بن سعد،

وتتبادل معه نظرة عميقة طويلة موحية. ثم سمعته يقول دون أن تفارق يده يدها:

- هل تعلمين ما قالت الخاتون أيضاً؟

تريّث لحظة وتركها تنتظر باهتمام وترقب، قبل أن يكمل.

- تساءلت: إن كان ما بينك وبينها حباً، فما بال هذا الحب بقي عذرياً حتى الآن؟ و... من صاحب الرأي في ذلك؟

خفق قلبها بشدة وحملها الموقف على الإطراق. ورانَ صمت عميق حتى بدّده من جديد:

- اصدقيني القول كما صدقتك. هل تعتقدين حقاً أن ثمة حباً عذرياً؟!

تضرّج وجهها بحمرة زادتها جمالاً وبهاءً. وإذ تريّثت في الإجابة، استأنف الكلام:

- قلت لي يوماً: قد يتملك الرجل المرأة دون قلبها الذي لا سلطان لأحد عليه. ولكن هل يكفي أن يفوز بقلبها دون سائرها ليزعم أنها له؟ إلا أن تعجزه وتعجزها الأحوال القاهرة! ... ألا تجيبين؟

أجابت أخيراً، ولكن بدون كلام. أرسلت إليه نظرة موحية وضغطت على يده، بكلتا يديها. وقبل أن تعي، وجدت نفسها محمولة على ساعديه القويين، وهي تطوق عنقه بذراعيها!

7

كان قد مرّ على وجودها في القصر نحو عام حين أعلن المعلم عليّ بن الحسن ثورته أخيراً. وفي البدء استهان السلطان بخطره. وأوهمه قادة جيشه أنه مجرد معلم صبيان لا تقبل شهادته اجتمع له نفر من أوباش الناس، لا يحسنون غير الغارة وقطع الطرق، فتهون مطاردتهم وحصرهم والقضاء عليهم. وما عسى معلم للصبيان أن يعرف في فنون الحرب والقتال إلا ما يكون من الغارة المفاجئة. ولكن ما الذي حمل معلّماً للصبيان من كتاتيب الدرس وفنون التأديب والتهذيب إلى رؤوس الجبال والمفاوز والطرق الغادرة؟ لن يطول الوقت حتى يتبين السلطان أن الأمر أخطر بكثير مما تصوّر له في البدء من حيث القدرة والغاية. لا، ليسوا عصابة من قطاع الطرق؛ وإنما هي ثورة تسعى إلى إسقاط الحكم القائم والتخلّص مما تصفه بالعسف والظلم والفساد والطغيان، وإقامة حكم جديد مبني على العدل والشورى. العدل والشورى؟ أليس هذا ما طلبه بخلع السلطان القديم ولم يدركه... مرغماً كما يرى؟ لئن صدق هؤلاء في غايتهم فهم يلتقون معه في حلمه القديم، وإن كان الآن على الجانب الآخر من ساحة النزال، والذي ألزمه بالتخلّي عن مثاله القديم إذ صار في السلطنة، يلزمه الآن أن يقاتل هؤلاء قتالاً لا هوادة فيه.

وحتى لو كانوا صادقين في غايتهم، فلماذا يدركون من ذلك المثال ما أخفق هو في إدراكه، لو استطاعوا أن يحوزوا الملك؟ وإلى ذلك فإن مادتهم من العامة الذين لا يعلمون شيئاً من فنون الحكم والسياسة. والهدم لا يحتاج إلى المهارة التي يحتاج إليها البناء وإقامة الصروح.

وكم ثار العامة من قبل كما تقصّ الأخبار، فقتلوا وأحرقوا ونهبوا ولم يخلّفوا إلا الدمار. فهم بذلك كجادِع أنفه بيده. ومهما يكن من أمر هذا المعلم ومواهبه وصدقه، فإن سياسة البلدان ليست كسياسة الصبيان، وبين حمل الكتاب وحمل الحراب لم يشغل أي عمل من أعمال الدولة، بخلاف حال السلطان قبل السلطنة، فقد تدرج في مناصب الجيش حتى بلغ أرفع المناصب. وفي وقت ما أضيفت إليه أعمال دار المدينة. وهي حكومة صغيرة في ذاتها، تشمل حسبة الأسواق وتنظيم التجارة والعسس وإصلاح الطرق والقناطر والمدارس والحمامات والبيمارستانات وحفظ الأمن، ولها قضاتها وشرطتها الخاصة. أما هذا المعلم الغرّ فما يلبث أن يواجه خيارات صعبة غير قرارات الإغارة السريعة التي يقدر على مثلها أي عصابة مارقة من أهل الشرور. ولن يكون بوسعه أن يميّز الخبيث من الطيب فيمن ينضمون إليه إذا كثروا، ولا أن ينزل الواحد منهم منزلته على قدر مواهبه ومناقبه. فتختلط الأغراض والأهواء المتنازعة. ومهما يكن من صدق غايته فإن استفحال أمره وانشغال عساكر السلطنة بقتاله، سوف يغري العدو المجاور المتربّص بغزو البلد، فتذهب كل الجهود والانتصارات السابقة وما بُذل فيها من الدماء والأموال سدى. لا، لن يسمح بأن يحدث شيء من هذا. يجب تنحية

الأسباب والنيّات والتفكير فقط في المآلات الخطيرة. ولا بد من سحق التمرّد قبل أن يستفحل أمره. فالنار من مستصغر الشرر!

ولكن الشرر لم ينطفئ مع كل الجهود المبذولة، ولم يتلبث حتى اشتعل ناراً. فكل الحملات التي جرّدت للقضاء على التمرد باءت بالفشل. وأثبت المعلم أنه قائد فذ لا يمكن الاستهانة به. وإذ كان من الواضح أنه لا يستطيع أن يواجه جيش السلطان بجيش مثله على وفق الحروب المألوفة التي تتزاحف فيها الجيوش حتى المواجهة والصدام، فقد لجأ إلى طرق أخرى تناسب أوضاع ثورته، وتفرض على عدوه أن ينازله بشروطه التي يمكن أن تعطّل تفوق خصمه. وكانت خطته الاعتصام في الجبال التي لا يمكن الصعود إليها إلا عبر طرق ضيقة، وشن غارات سريعة خاطفة، ثم الاختفاء بالسرعة نفسها، ونصب الكمائن ومفاجأة العدو من أمامه ومن خلفه قبل أن يستجمع نفسه. وبذلك يتم إنهاك العدو تدريجاً واستنزاف قدراته وعدده وعدته. والمأمول في مرحلة تالية أن يبدأ الجيش بالتفكك حين يدرك العسكر أنهم يخوضون معركة خاسرة، فيطلب بعضهم النجاة بنفسه، لا سيما المرتزقة والعبيد، وقد ينضم آخرون إلى الثوار. حتى إذا بلغ الثوار ذلك القدر من التمكّن بدأوا في احتلال القرى والنواحي والثبات فيها. فإذا أخذوا في التقدم نحو حاضرة الملك تجرّأ عامة سكانها على خلع الطاعة والثورة، فيلتقي الماء على أمر قد قُدِر.

ولا ثمّ كالانتصارات ما يدعو إلى انضمام المزيد من الثوار. فما هي حتى اجتمع للمعلم خلق عظيم، وزعهم على جبال ومناطق

مختلفة، وصار بوسعه أن يشن بهم غارات متزامنة فرضت تشتيت جند السلطنة الذين وجدوا أنفسهم يواجهون عدواً خفياً يراهم ولا يرونه، فلا يعلمون متى وأين يغافلهم بهجوم صاعق سريع على حين غرّة. وما هي حتى أدرك السلطان عبدالله بن سعد أنه يواجه أصعب اختبار في حياته.

ولأول مرة تلحظ قمر قلقه الشديد بعد أن كان واثقاً من قدرته على قمع الثورة في وقت قصير أول الأمر، فلما طال واشتد منعه كبرياؤه من إبداء القلق فترة من الوقت، حتى غلب عليه أخيراً فبدا في وجومه الطويل وتقلبه في النوم. والآن تصحو عليه في جوف الليل لتجده مستيقظاً إلى جانبها في الفراش يحدِّق في السقف، وقد سقط على وجهه ضوء المصباح الشاحب المعلق على الجدار.

قبل أن تبدأ هذه الأحداث، كان قد هجر نساءه الأخريات، وسرّح بعضهن مستغنياً بالمرأة الوحيدة التي ملكت عليه قلبه وعقله وروحه وجوارحه، فلم تترك فيها حيّزاً لغيرها. وأدرك أن الاستكثار من النساء علامة نقص لا زيادة؛ نقص في كل واحدة منهن وفي مجموعهن، وأما الواحدة، مع القدرة على الكثرة، فهي علامة الكمال والاستغناء.

- ما الذي أرّقك يا سيدي.

ثم استدركت بسرعة:

- ما أحمق هذا السؤال!

بقي صامتاً تائهاً في أفكاره، ثم رفع رأسه وكتفيه مستنداً إلى الحشية، ففعلت مثله.

- هل تعلمين أشد ما ألقى من هذا المعلم؟

تريّث لحظة أخرى قبل أن يتابع:

- أنه يحاربني بمطلبي القديم الذي أعجزني تحقيقه وبقي ماثلاً في نفسي. فإن غلبته فكأني أغلب بعضاً مني. وإن غلبني فكأنه تغلّب على بعضي ببعضي! لا أراني أستطيع دفع إعجابي بهذا العدو، وأن أرى فيه على الرغم من كل شيء صورة من الرجل الذي كنته، إلا أن مادتي كانت العسكر، ومادته من العامة. وهم يكثرون حوله. فإن طال هذا الأمر وكثر القتل فقد ألزمني أن أقتل حلمي القديم إلى الأبد، لأصل إلى أقصى ما يصل إليه الطاغية الذي لا يهمه أن يفنى شعبه ليبقى سلطانه.

التفت إليها متفحّصاً متأمّلاً كأنه يبحث في عينيها عما يواسيه أو يخرجه من متاهته.

- ألا ترين يا سلمى أين وضعني هذا المعلم؟ إما نصر ثمنه من روحي ومعه لعنة الناس، وإما هزيمة ثمنها حياتي وسلطاني ومعها كذلك لعنة الناس. فلا عزاء في الأولى ولا عزاء في الثانية.

لم تره من قبل في مثل هذه الحال، وهو الرجل القوي الذي أرعب الملوك وأنزلهم على شرطه، وقضى على كل خصومه ومنافسيه بلا رحمة. أين هذا الرجل الذي يستلقي إلى جوارها ويبوح لها بمكنون صدره من الوحش الذي كان يتصور لها من قبل، وترجو هلاكه؟ لأول مرة، غمرها شعور بالإشفاق عليه، ووجدت نفسها تمسح على شعره وتنظر في عينيه.

- هل تصدّق يا سيدي؟ إن حالي كحالك. أرجو ما ترجو لنفسك، وأخشى ما تخشى على نفسك. ولعل الله أن يجعل لك ولنا ولكل الناس مخرجاً يرضيك ولا يخزيك.

هز رأسه هزة خفيفة ولمس خدها بحنان وحب، وعاد ينظر في الفراغ، ثم تحدث من جديد بنبرة مختلفة كأنه يريد أن يقنع نفسه بشيء ما.

- ولكن ما أدراني أنه صادق فيما يعلن به؟ ألا يكون رجلاً طموحاً طامعاً بالملك لنفسه فتوسّل لها حشد العامة على مطالب العدل والشورى، حتى إذا تمكّن جعل ذلك كله وراء ظهره؟! وهبي أنه صادق الآن فيما يعلنه، فما يدرينا بأنه سيغيّر ويتغير إذ يتذوق طعم السلطان، أو تلزمه الأحوال كما ألزمتني؟ أتدرين يا سلمى؟ نعم، وضعني هذا المعلم في متاهة لا أهتدي فيها سبيلاً حتى الآن. ولكني أعتقد أنه سيجد نفسه قريباً في متاهة أشد مع تعاظم العدد من حوله. أعني... أن مصدر قوته سيكون مصدر ضعفه، فهؤلاء الذين ينضمون إليه يخرجون من سلطاني إلى سلطانه، وسيكون عليه أن يسوسهم في أمور معاشهم كما ينبغي لأي حاكم. وعندئذٍ سيجد أن تدبير الحرب والغارة على خصم يميّزه أهون كثيراً من تدبير أمور جماعته حيث تختلط الأهواء والأغراض والآراء والأمزجة والطبائع. وما هي حتى يتنازعوا أمرهم بينهم، فإما أن يلجأ إلى الشدة والحزم، فيوغر عليه بعض الصدور، وإما أن يتهاون ويتراخى خشية النزاع والفُرقة، فتعم الفوضى وتفشل ريحهم. وبذلك يصير حليفه عليّ الآن، حليفي عليه غداً: العامة!

أطلق نفثة عميقة، وبدا كأن الفكرة قد أراحته قليلاً. هل كانت نبوءة أملاها العقل وغذتها التجارب، أم كانت مجرد أمنية خلقتها الرغائب؟ هذا ما ستكشف عنه الأيام المقبلة. أما الآن، فعلى السلطان عبدالله بن سعد أن ينشغل في محاولات الخروج من متاهته، بدلاً من ترقب المتاهة التي يمكن أن يجد المعلم نفسه فيها لتعينه عليه.

ما لم يكن في وسعه أن يعرفه في تلك الساعة، أن المرأة التي تستلقي إلى جواره، والتي ما كان ليبوح لغيرها بتلك الأفكار الموجعة كانت أكثر منه تيهاً فلا تدري على أي جنب تميل. وإذا كان على كلٍّ من الخصمين أن يواجه متاهته، فإن عليها أن تضيع بين المتاهتين. لماذا كتب عليها أن تكون مجمع الأضداد، لا تلتقي إلا لتتصادم. هذان رجلان يلتقيان فيما يفرقهما، ويفترقان فيما يجمعهما. أو هما معاً مَجْمع البحرين يلتقيان، ولكن بينهما برزخ لا يبغيان. وهي هناك في البرزخ التي تتلاطم فيه أمواج البحرين العاتية. ماذا لو عرف هذا الرجل الذي يستلقي إلى جانبها بعد أن منحها قلبه بلا شرط أن خصمه المعلّم استعان عليه بأمواله التي منحها إياها! هنا كادت تلعن نفسها وحظها الذي جعلها مطلباً عزيزاً لأعظم رجلين في حياتها وفي البلد الآن. وإنهما ليتحاربان الآن في داخلها وبها. كيف يمكنها أن تحتمل ذلك كله؟ هل يجب أن ينتصر أحدهما بهزيمة الآخر؟ أم يمكن أن ينتصرا معاً على نحو ما يتحدى العقل والمنطق، فيلتقي الماء على أمرٍ قد قُدِر!!

* * *

كان يتمشى بخطوات قصيرة ويدور على نفسه في قاعة الحكم بعد أن أمعن في تأنيب قائد العسكر على تطاول الأمر مع الإخفاقات المكرورة، وذلك بحضور الحاجب والوزير وقائد الشرطة وقاضي الجماعة وقاضي العسكر. ولما فرغ من التأنيب أرسل نظرة فاحصة إلى قائد العسكر مستطلعاً ردّه:

– العفو يا مولاي. علم الله أن عسكر مولانا لا يدّخر جهداً في ملاحقة ذلك الشقي وعصابته. ولكننا نخوض حرباً ضد عدو خفي لا نراه حتى يفاجئنا على حين غرة في المكان والزمان اللذين...

قاطعه السلطان بغضب.

– ما الجديد في هذا؟ أهذا خير ما تعتذر به؟

– أكثرنا من العيون لنعرف أين يجتمع فريق منهم، فنفاجئهم قبل أن يفاجئونا ثم نعمّي عنهم وجهتنا ونقصدهم على عجل، فإذا وصلنا نجدهم قد تفرّقوا.

تردد قليلاً ثم تابع:

– وهذا أهون ما في الأمر. فقد نتعمّد الإعلان عن وجهة ونسلك أخرى.

تدخل السلطان هنا بنبرة ساخرة.

– لتعمّوا عنهم!

هز قائد الجيش رأسه مطرقاً ليتجنب نظرات السلطان الصارمة..

– أكمل! ماذا بعد أن تتعمدوا الإعلان عن وجهة وتسلكوا أخرى؟

- هذا ما يحيرنا يا مولاي... يفاجئوننا في أضيق الشعاب من الطريق الذي أخفيناه وسلكناه.

- تعني من هذا كله أن له عيوناً ترى منكم أكثر مما ترى عيوننا منهم! وإن كنتم تكتمون الوجهة التي تريدون فلا معنى لذلك إلا أنه استمال بعض الخونة في جانبنا فصاروا عيوناً له.

هنا تدخل الحاجب في الكلام:

- ربما كان هذا يا مولاي. وإلى ذلك فقد لحقه الكثير من العامة كما نعلم. وهؤلاء خلفوا وراءهم أقارب وأصحاباً يمدّونهم بالأخبار. وربما تطوّع بعضهم بذلك، بل ربما ألزم بعض أتباعه أن يبقوا في قراهم ومراعيهم والشعاب التي يقيمون فيها ليكونوا له عيناً. فكيف يمكن أن نميّزهم بين عامة الخلق؟

- ربما... ربما... ربما. ألا تحسنون غير التخمين والتعليل؟

أجاب الحاجب:

- بلى يا سيدي. ثمة ما يمكن أن نشير به على مولانا لو أذن لنا.

- لهذا جمعتكم...

أومأ الحاجب إلى قائد العسكر، ليتولى الكلام عن الجميع.

- لقد ألزمتنا طريقة هذا المارق وعصابته أن نوزع جندنا على أماكن متفرقة متباعدة... مع ما في ذلك من تشتت القوة وصعوبة الترتيب بين المجموعات والتوصل إليها بالميرة والرسل. وخير عساكرنا ما زالوا في الثغور... فالرأي أن...

قاطعه السلطان بسرعة وقد فهم القصد.

- نسحب جيوش الثغور؟ ونتركها مكشوفة للعدو المتربّص. فيميل علينا، فلا ندري على أي جنب نميل؟! أهذا هو الرأي؟

هنا تدخل الوزير:

- إنما نوازن بين الضررين يا مولاي. فلو عاقدنا ملوك البلدان المتاخمة لنا... إلى أجل حتى ينقضي أمر هؤلاء العصاة. فإذا فرغنا منهم عادت الجيوش إلى مواقعها في الثغور.

- ونعاقدهم على ماذا؟ نسقط الإتاوة السنوية التي فرضناها عليهم لقاء سلمنا؟ ألم تعلم أنهم امتنعوا عنها منذ انشغلنا عنهم بهذا العصيان؟ أم ننزل لهم عن بعض الأراضي والحصون التي استرجعناها منهم أو توسعنا بها لنلجمهم؟ وذلك ما بقي لنا من مأثرة نُذكِّر بها الناس. فماذا تقول فينا العامة التي ما زلنا نتألفهم بالانتصارات التي حققناها على عدو البلد ونخوّفهم من فتنة التنازع والخلاف خشية أن يميل علينا العدو المجاور ونفشل وتذهب ريحنا.

تحدّث الحاجب بشيء من التردد:

- أو... يحمّلون العصاة وزرها!

- بل يقولون: أسد عليَّ وفي الحروب نعامة. أليس هذا ما كانوا يقولونه في السلطان السابق؟ وأحسبهم يقولون أيضاً: هكذا حال الطغاة، حتى من صدق في طلب العزة والرفعة لقومه. قد يحسن رفع البناء أول الأمر ويبعث الحمية في نفوس رعيّته ويجمعهم على طاعته إذ يرون فيه المنقذ الذي كانوا يترقبون ظهوره؛ بل

يباركون شدته واستبداده على أنها من باب الضرورة. ويرون في قوته قوتهم، وفي علوه علوهم. ولكن إلى حين، عندما تزيد المغارم على المغانم، فيبدأ البناء الذي رفعه أول الأمر في الانهيار، وينقلب الانتصار الذي حققه على العدو إلى انكسار، والقوة التي تغنوا بها إلى عُسف وقهر يصيبهم منهما أكثر مما يصيب العدو... عندئذٍ: أسد عليّ وفي الحروب نعامة، وما يصيبنا من الطغاة أشد مما يصيبنا من الغزاة. فهل هذا ما تشيرون به عليَّ الآن؟ لبئس ما تدعونني إليه... لبئس ما تدعونني إليه. هذا لعمر الله ما يريده ذلك المعلم الشقيّ، ليستميل عليّ المتردد والخائف.

أطرقوا رؤوسهم واجمين حائرين. ما الذي تغيّر في هذا الرجل؟ لم يروه من قبل حائراً في رأي، أو حريصاً على رأي العامة فيه... العامة التي لحق الكثيرون منهم بعدوه المعلم وأعلنوا العصيان، ولم يسمعوه من قبل يتحدث عن الطغيان ومآلاته. ومرت لحظات صمت ثقيلة، قبل أن يواجههم بالكلام من جديد.

- أهذا كل ما عندكم؟

أجاب الحاجب:

- السلطان أعلم، ونحن خدمه. و... إن شئت الحق يا سيدي فعندنا كلام غير الذي قلنا، لولا أن ألجمتنا بحديثك...

- بل قولوا...

تريّث الحاجب لحظة ثم تحدث:

- قد يضحّي الرجل بنفسه، وهو يحسب أنه يفعل ذلك من أجل نفسه والآخرين من ورائه. يموت ليحيوا. ولكنه يضعف عن

التضحية بأهله من خلفه! فلو أننا تتبعنا كبار جماعته، فتقبضنا على أهاليهم و... ونكبناهم في أرزاقهم وأملاكهم... فلربما... أعني إن لم نلزمهم التوبة والرجوع إلى الطاعة، ردعنا غيرهم ممن تحدِّثه نفسه بالالتحاق بهم.

هز السلطان رأسه يميناً وشمالاً استخفافاً بالرأي.

- ما بالكم! كلما أردتم أن تشهروا سلاحاً ارتد عليكم؟ كأني بهذا الرأي نقول للناس، إذا كنتم مأخوذين من بيوتكم فالأولى بكم أن تلحقوا بمن سبقكم إلى ذلك المعلم، فلا يُقتَل أحدكم إلا وقد قتل من عدوه، فإما أن تموتوا أعزاء، أو تحيوا أعزاء غالبين. وما ذنب الصبية والنساء والشيوخ والعجائز حتى نأخذهم بجريرة غيرهم، فنبوء بغضب الله، ولعنات الناس أجمعين، دون أن يقدّمنا ذلك التدبير في هذه الحرب؟ فلبئس الرأي، اخرجوا عني الآن حتى أُرَوّي في هذا الأمر.

انحنوا له، وبدأوا في التراجع للخروج، وقد ازدادوا حيرة في أمره. فما رأوه من قبل يتوقى الشبهات ويراعي الحرمات في أعدائه. وبالطبع ما كانوا ليميزوا بين عدو الخارج، وثوار الداخل، أو بين عدو طامع من أهل الحكم والرياسة، وخصم من الرعية لا يرجو غير دفع المظالم التي وقعت عليه.

فجأة توقف الحاجب، وارتد بوجهه إلى السلطان...

- مولاي!

أرسل إليه السلطان نظرة استطلاع:

- قد تجرّأ بعض الدعاة والوعاظ والمشايخ المغمورين إذ رأوا اختلال الأمور. فهم يحرّضون الناس في دروسهم ومواعظهم... إن لم يُفصحوا وَرَّوْا بكلام مفهوم... مناجزة البغي، وقول الحق عند السلطان الجائر... وتغيير المنكرات باليد أولاً إلى آخر الطرق... والساكت عن الحق شيطان أخرس... والطعن فيمن يصفونهم بوعاظ السلطان الذين يحلون ويحرمون بأمره... ونحو ذلك. وفي الناس سمّاعون لهم. فكيف نصنع بهم؟

أجاب السلطان من فوره هذه المرة بلهجة قاطعة:

- أما هؤلاء فخذوهم كل مأخذ. احبسوهم واضربوهم. ولكن لا تقتلوا أحداً منهم.

ثم توجه إلى قاضي الجماعة وقائد الشرطة:

- وفي المقابل... اجعلوا على المساجد والتكايا أئمة ووعاظاً من أهل الطاعة. ومروهم أن يُذكِّروا الناس أن هذه فتنة دهماء توشك أن تفرّق الجماعة وتغري بنا العدو الطامع، وأن طاعة ولي الأمر واجبة بحكم الشرع، حتى لو كان جائراً، ما لم يظهر كفراً بواحاً. وأن الخروج عليه والتحريض عليه من المحرمات. و... أن هذه الفتنة قد بُيِّتت بليل من أعداء البلد المتربصين الذين وغرت صدورهم علينا لما وجدوا من بأسنا عليهم.

تحدث قاضي الجماعة:

- السمع والطاعة...

همّوا بالخروج من جديد، فاستوقفهم، ولبث لحظة متفكراً كأنه اهتدى إلى أمر... ثم نظر في وجوههم.

- لماذا لم يخطر هذا لنا؟

تفحصوه مستطلعين مترقبين. ثم استأنف:

- هذا المعلم الشقيّ. كيف له أن يميّز من يلتحق به من العامة مع الكثرة؟!

توجه الآن إلى قائد العسكر وقائد الشرطة:

- اجمعوا من استطعتم ممن ترون صلاحه لهذه المهمة، وأغروهم بالمال وأنّا نتعهد أهاليهم من ورائهم، على أن يدخلوا في دعوة المعلّم ويتظاهروا بموالاته، ثم يأتونا بأخباره على الطريقة التي ترسمونها لهم، ويخذّلوا جماعته عنا ما استطاعوا على حد ما نأمرهم به، فنكون قد توصلنا إليهم بما عجز العسكر عن التوصل إليه. ولكن، تعهدوا ذلك كله بالكتمان.

تهللت أسارير الحضور لأول مرة منذ بدء هذا اللقاء. وتحدث الحاجب:

- حقاً. كيف فاتنا هذا الرأي؟ ذلك هو الإلهام الذي وُهِبَه مولانا.

عقب السلطان فوراً بلهجته الصارمة المعتادة، المشوبة بالازدراء:

- أروني ما تصنعون، أما النفاق فلا حاجة لي به الآن!

وأخيراً تدخّل الوزير:

- أمر خطر لي يا مولاي من وحي هذا الرأي. لماذا لا نكلف أحد الرجال الذين سنقحمهم في جماعته، أن يترقب غفلة منه ومن

رجاله، فيقتله غيلة قبل أن يتفطن أحد إليه... ربما بالسمّ... أو بغيره! فإذا قُتِل فرط عقد الجماعة، ولا أحسبهم يجتمعون على غيره.

رانَ الصمت على الجميع، وقد وقع الرأي موقعاً بليغاً من نفوسهم. وأطرق السلطان شارداً بضع لحظات، قبل أن يتوجه ببصره نحو قاضي الجماعة كأنه يستطلع رأيه، ولم يتأخر القاضي في إبداء الرأي:

- لا حرج يا مولاي. إنها حرب وفتنة. وما الفرق أن نقتله غيلةً أو في ساحة النزال لو استطعنا؟ إلا أن قتله غيلة يمكن أن يوقف الفتنة، ومعها سفك الدماء من الجانبين.

هز السلطان رأسه واجماً... ثم تولّى عنهم دون أن يعقّب.

* * *

لم تكن سلمى حتى الآن قد راسلت المعلم بأي خبر عن تدابير السلطان وأعوانه في تلك الحرب. وكان قد رتب في آخر لقاء لهما أن يكون الرسول بينهما رجل يعمل في البيمارستان الذي ترعاه. ولِمَ تفعل ما لم تعد راغبةً في فعله أو قادرةً عليه! لقد وعدته بأن تبذل ما في وسعها، وتعمّدت في ذلك الحين أن تضيف شرط الوُسْع، وفي ذهنها ما هو أكبر من المعنى الظاهر. فهي وحدها من يقدّر معنى «الوسع» في حالها. وقد أعانها على ذلك أنه لم يبلغها سر هام يمكن أن ينتفع به، وما كانت لتحرص على تحرّي ذلك. وكفاها أيضاً ما تسامع به الجميع عن تفوّق عيون المعلم في استطلاع حركة الجند

وتدابيرهم وطرقهم في وقتها ومكانها. وهذا ما لا يتسنى مثله لمن يقيم في القصر، بل إنه لا يتسنى للسلطان نفسه. فهذه حرب تقوم على الكر والفر والتنقّل الدائم والمفاجأة في أماكن متفرقة متباعدة؛ وكل ذلك لا يعرفه في وقته إلا من يواجهه من الجند أنفسهم.

ليس هذا ما تصوّر لها وللمعلم حين تواطآ على خطتهما قبيل خروجها إلى قصر السلطان. ترى لو أدرك المعلم في ذلك الحين أن مقتضى الحال مستقبلاً سيجعل الانتفاع بوجودها في القصر قليلاً أو منعدماً، هل كان سينفذ خطته الأخرى في الفرار بها من دار النخّاس؟ حين رجعت بتفكيرها إلى تلك الساعة، وتمعنت في الأمر في ضوء المآلات التي صارت إليها، اقتنعت، أو أقنعت نفسها، أن خطة الفرار لم تكن ممكنة على كل حال، بل لم تكن مصيبةً من وجهة نظر المعلّم على الأقل. والأرجح أنه أدرك ذلك حينئذٍ. فحتى لو تمكن من إخراجها من دار النخاس عنوةً، ولم يكن هذا بالأمر الهيّن، فسوف يرسل عليه أهل القصر ورجال أبي حسان النخاس من يلاحقه عبر البلاد. فما كان لأبي حسان أن يتخلى عن درته الثمينة، وما كان لأهل القصر أن يسكتوا عن خطف من صارت جارية للسلطان، مع ما في ذلك من الإهانة لمقام السلطنة. والعاقبة المحتومة أن ينتهي المعلم بالقتل، أو الفرار خارج البلاد كلها. فهل كان يمكن أن يجازف بحياته أو بخطته التي ما زال يعمل عليها منذ سنين استعداداً للثورة؟! لا، ليس المعلم من يفعل هذا فيقدّم حاجة نفسه على مطلب الحق والمبدأ والعامة.

ولكن، إذا كان لا بد من خروجها إلى قصر عدوّه على كل حال، فلعل ذلك أن ينفعه في خطته، فإذا تحقق له الفوز، كان فوزه

في الثورة فوزه بالفتاة التي أحبها، وكانت حريتها في حرية العامة كلها. على أن ما عرفته أخيراً عن خطة الاغتيال وما يحيط بها، أرغمها أخيراً على نقل الخبر للرسول، دون أن يثقلها التأثّم.

حين بلغ المعلّم الخبر، حار في أمره وضاق به صدره، بقدر ما سرّه حرص قمر عليه، وأنها ما زالت على عهده. كيف له أن يميز الخبيث من الطيب فيمن يلتحق به من المتطوّعة؟ حين عرض الأمر على كبار أعوانه الذين جعلهم مجلس شورته، اختلفت الآراء. ثم استقر الرأي على أن يتوقفوا عن قبول المتطوعة الجدد لمدة ثلاثة أشهر، إلا من كان معروفاً لأحد من السابقين الموثوق بهم. وهم على كل حال لا يفتقرون إلى الكثرة، بل ربما صارت هذه الكثرة عبئاً عليهم في الوقت الحاضر من حيث توفير المؤونة والسلاح. فإذا انقضت الشهور الثلاثة كان عليهم أن يختبروا المتطوع الجديد، فإذا ظنوا به خيراً، كان الأوجب أن يضمّوه إلى المجموعات البعيدة أولاً وأن يروا بلاءه وإقدامه في الغارة، فالمرتزق الذي يضمر غشاً أحرص على حياته من حرصه على المال الذي وعد به. وفي كل الأحوال فإن على المعلم منذ الآن أن يزيد في الحرص واليقظة، فيبقي على رأسه مغفرة الحديد، وعلى صدره درع الزرد حتى في نومه، ولا يفارقه من أمامه ومن خلفه بضعة رجال من ذوي البأس يحفظونه من أمر الغيلة.

على أن هذا لن يكون الاختبار الأصعب الذي سيواجهه المعلم في داخل جماعته. وقد صحت نبوءة السلطان في المتاهة التي سيجد نفسه فيها.

وكان أول ذلك أن بعض ذوي النفوس الضعيفة من جماعته قد غلّوا لأنفسهم من الغنائم والأسلاب وثبت عليهم الجرم الذي يوجب العقوبة. واختلف أهل الرأي في مجلس المشورة. فمنهم من رأى الاكتفاء بطرد المذنب، ومنهم من اقترح الجلد قبل الطرد، ومنهم من أصرّ على ضرورة قطع اليد بجرم السرقة ردعاً لمن تحدثه نفسه باقتراف مثله. وكانت حجة القائلين بالرأي الأول أن مقتضى الحال العام من الفقر والعوز هو بمثابة شبهة تدفع الحدّ، كما أن الغلّ من الأسلاب وقع قبل أن يصير المال في حرزه، وهو شرط من شروط إقامة الحد. وإلى ذلك فإن الشدة القصوى لن تردع عن الجرم إلا بقدر ما تردع آخرين عن الانضمام إلى الدعوة حين يشيع بين الناس أن المعلم القائد يسرف في العقوبة، فاليوم يعاقب بالقطع وغداً يعاقب بالقتل. ولا بد أن يوغر الأمر صدور آخرين من قوم المذنب الموجودين في الجماعة ومن بقي خلفهم في القرى والأنحاء. وربما انقلبوا على الدعوة وطلبوا الثأر.

احتدم الجدال، حتى أنهاه المعلم بنبرة صارمة. وكان رأيه أن الحزم والعدالة أجدر بالثورة من الدولة نفسها، إذ إن التهاون يفضي إلى الفوضى ويغري بالتجاوز، وما يمكن أن تحتمله الدولة الراسخة الأركان، لا تحتمله الثورة.

ومن يجيز لنفسه أن يختلس من مال الثورة لا يؤمن أن يخون غداً من أجل منفعة تساق إليه. ولكنه لا يرى القطع للشبهة التي وقع ذكرها، فيكفي العقوبة بالجلد ثم الطرد.

لم يكد يفرغ المعلم من هذا الاختبار، حتى حدث ما هو أدهى وأمرّ. إذ وقع شجار بين بعض المتطوعة مما يقع بين الناس في

أحيائهم وأسواقهم وتزاحم أقدامهم. وفي غمرة الشجار تلقّى أحدهم لطمة وقعت على موضع قاتل منه. وقد ثبت بشهادة الشهود أنه كان من القتل الخطأ الذي لا يوجب غير الدية. وبالطبع فإن القاتل لا يملكها الآن، إلا أن تؤخذ من قومه في قراهم. أما أقارب القتيل في الثورة وفي القرى، فأبوا أخذ الدية، وأصروا على أن ابنهم قد قُتِل عمداً، ولا بد من القصاص: نفس بنفس، ودم بدم. ومما زادهم تشدداً أن القاتل كان من قبيلة أخرى بينها وبين قبيلة القتيل تاريخ قديم من العداوة والثارات. وما كان المعلم ليخضع لمطلب يراه ظالماً مهما يكن الثمن. فالرجل الذي ثار على ظلم السلطان، لا يستفتح باب الظلم في ثورته. فكان أن انسحب المتطوعة من أقارب القتيل وعادوا إلى ديار قومهم ساخطين متوعدين، واجتمع أمرهم على أخذ الثأر بأنفسهم. ولما كان من غير الممكن أن يتوصلوا إلى القاتل في جماعة المعلم، جمعوا أمرهم ومالوا على أهله في ديارهم فقتلوا منهم، فنجم الشر بينهم وتجدّدت الثارات. ولما رأى أقارب القاتل في الثورة ما حل بأهلهم انسحبوا أيضاً من جماعة المعلم والتحقوا بقومهم ليقاتلوا معهم القبيلة الأخرى. وما كان في وسع المعلم أن يطفئ الحريق الذي بدأ يتّسع مع تعزز كل قبيلة بأحلافها.

ولكن السلطان استطاع ما لم يستطعه المعلم في هذا الشأن! وما كان ليفرط بهذه الفرصة الثمينة ليثبت سلطانه، وأنه ما يزال وحده القادر على ضبط الأمور ومنع الخلل والقضاء على الفوضى وإقرار الأمن في البلاد، والفصل في خصومات العباد، وأن رأس الداء وأصل البلاء هو تلك الفتنة الدهماء التي أشعلها أولئك الخوارج الذين فرقوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة، وأن مطلب الأمن مقدم على أي مطلب

آخر مهما يبد مغرياً للعامة. وهكذا أرسل جنده وقضاته وأخذ الطرفين المتنازعين بالحزم والوعد والوعيد والترغيب والترهيب. وساق من خزانة الدولة ديات القتلى من الطرفين، وأخذ عليهم عهود الصلح والسلم، حتى انطفأ الحريق وسكن الناس على دَخَنٍ في صدورهم.

وكانت تلك ضربة موجعة للمعلم وثورته. ولكنها لن تكون الأخيرة التي تأتيه من الناس الذين ثار بهم ومن أجلهم. ومنذ الآن سيجد السلطان له أعواناً من العامة نفسها ضد المعلم وجماعته.

وكان عند السلطان سبب آخر للاحتفاء، إلى جانب هذا الفوز. سلمى حامل. وأي سبب أعظم من هذا ليضجّ قلبه بفرح لم يختبر مثله منذ وقت بعيد. هل ستلد له ولي العهد أخيراً؟ عليه أن ينتظر. ولكن لأمر ما طغى عليه الاستبشار. لعل الله قد ادخر المولود الذكر الذي يرجو ليكون من المرأة الوحيدة التي أحبها حباً عظيماً، بل التي علمته معنى الحب الذي لم يكن يعتقد بوجوده أصلاً. ثم إن هذا الحمل قد وافق فوزه الأول على المعلم. فلعل هذا علامة خير أخرى. أما سلمى فلم تكن في حاجة لأن يطمرها بالهدايا الثمينة والرعاية العظيمة لتطير بحملها فوق السحاب، وتحب الحياة لأول مرة. كيف لا وهي الآن تحمل الحياة في بطنها!

وما كان ليكافئ فرحها إلا انقباض الخاتون وحقدها الدفين، ولم يكن السلطان وحده من انصرف عنها، وإنما كذلك جُلّ أهل الخدمة الذين يميلون حيث يميل السلطان في كل الأحوال، فكيف إذا انضم إلى ذلك كرههم للخاتون المستكبرة المتعجرفة، وحبهم في المقابل لسلمى الجميلة الطيبة الكريمة التي لم تحملها حظوتها الخاصة عند السلطان على أن تغير شيئاً من طبيعتها الأولى التي عرفوها بها.

مكتبة 8
t.me/t_pdf

في الشهور التالية واجه المعلم انتكاسات أخرى أشد خطورة. فحين ذهبت مجموعة مكلفة من رجاله لجمع المؤونة من إحدى القرى المتعاونة معه، واجههم أهل القرية بالدهشة والإنكار والغضب. وأخبروهم أنهم أدوا فوق ما يقدرون عليه قبل يومين فقط لمجموعة أخرى جاءتهم لهذا الغرض. بل إن تلك المجموعة لم ترضَ منهم بالقدر المعتاد الذي يخرجونه من قوت عيالهم طوعاً وحباً وكرامة، فغصبوهم ضعفيه. وحين اعترضوا عاملوهم بغلظة وفظاظة غير مسبوقة، وتهددوهم بالعقاب الشديد إذا امتنعوا. وكل ذلك بدعوى أن الثوار الذين يضحّون بأنفسهم من أجل إنقاذهم من عسف السلطان، أحق بما يحفظهم من الجوع والضعف، وأن على الجميع أن يقدّموا بعض التضحيات، إن لم يكن بالنفس، فبالمال والطعام.

لم يكن من الصعب أن يتوصل المعلم ورجاله إلى أن الذين تولوا كبر ذلك العمل هم عصابة من اللصوص والشطار الذين انتحلوا صفة الثائرين وسبقوهم إلى القرية، وهو أمر لا يمكن التهاون فيه. ففضلاً عن أنه يلطخ سمعة الثوار فإنه يذهب بالثقة القائمة بينهم وبين الناس حين يختلط عليهم الحابل بالنابل، واللص

بالثائر. وهكذا اتفق الرأي على أن يصطنع المعلم له ختماً خاصاً، فإذا تسلل أعوانه إلى القرى لجمع المؤونة التي يتطوع بها أهلها، عرضوا ختمه على كبير القرية، فإذا طمأن إليهم تولى بنفسه جمع المؤونة مما تجود به الأنفس دون إكراه، ثم يتركها في مكان آمن يتم الاتفاق عليه. أما اللصوص الشطار فحين أبطل الختم حيلتهم، لجأوا إلى العنف والابتزاز بالقوة. فكان على المعلم أن يقسم جهود جماعته بين الغارة على جند السلطان، وملاحقة اللصوص الذين تكاثروا مع الزمن وتعاظم أذاهم حتى ضجّ الناس واشتدت بهم الفاقه، ولم يعد كثيرون منهم يجدون ما يقدمونه للثوار من قوت عيالهم، وبدأ بعضهم يدندن بأن ما صاروا إليه من الضيق مع تطاول أمد الثورة أشد مما كانوا عليه قبلها. على أن توزع الجهد بين الغارة على جند السلطان وملاحقة اللصوص في أرض مفتوحة كشف جماعة المعلم لعسكر السلطان، ومنذ ذلك الحين بدأ الثوار يفقدون تفوقهم، وتقلّب الفوز بين الطرفين فيومٌ لهذا ويوم لذاك حتى استحرّ القتل بينهما. ومن جديد، استغل السلطان هذا الوضع ليبث بين الناس أن أولئك اللصوص والشطار ما كانوا ليجرؤوا على أمن الناس ودمائهم وأموالهم لولا الفوضى التي أحدثتها فتنة المعلم وعصابته، وأن المكوس والجبايات التي كان يقتضيها منهم إنما كانت تستعمل لحمايتهم من عدو الخارج وأشرار الداخل. وبالطبع وجدت هذه الدعاية آذاناً صاغية في ظل الأحوال الجارية.

لم تكن مشكلة اللصوص والشطار آخر ما كان على المعلم أن يواجهه في متاهته، ولا أشدّها خطراً وضرراً. وهذه المرة سيأتيه الضرر الأعظم من مأمنه ومن بعض كبار أعوانه في مجلس شورته.

ففي الوقت الذي أوشكت فيه مصادر الدعم والمؤونة على النّضوب، توصلت إليهم رسلٌ من بعض الممالك المجاورة وعرضت عليهم المعونة بالمال والسلاح لقاء أن يعاهدوهم على السلم حين يتمكنون من خلع السلطان وأعوانه، وأن يردّوا عليهم الأراضي التي استولى عليها السلطان من بلادهم.

كان ردّ المعلم سريعاً وحاسماً بالرفض، وهو ما لقي مقاومة شديدة من بعض أعوانه الكبار. كانت حجته عليهم واضحة: لن يرضى بأن يستقوي بعدو البلد: حاكمه ومحكومه معاً، ضد السلطان، مهما تشتد الحاجة ، فتنقلب الثورة على الطغيان والاستبداد إلى خيانة. فإن لم يمنعه من ذلك مُثُله وذمته، منعته حسبة الأضرار العملية. فإذا شاع بين الناس أنه مالأ عدو البلد انقلبوا عليه وانفضوا من حوله. فلا تكون مناجزة الطغاة بمواطأة الغزاة. ألم يكونوا هم البادئين بالغزو والعدوان في عهد السلطان السابق؟ وإن كان للسلطان الحاضر مأثرة يذكرها الناس فهي أنه ردّهم على أعقابهم خاسرين، واستردّ منهم ما حازوا عليه من أراضي البلد، ثم استحوذ على بعض أراضيهم لتكون حاجزاً رادعاً وآمناً. وحتى لو استقوى بهم الآن، فكيف يأمن غدرهم حين تسنح لهم الفرصة فيعودون سيرتهم الأولى؟ وليست غايتهم إلا إضعاف الطرفين في البلد من أجل أغراضهم.

أما حجة المخالفين فكانت أن نضوب الموارد لا يترك لهم خيارات كثيرة، وقد مضوا في طريق لا يستطيعون الرجوع منه إلا بالهزيمة والفناء، فتذهب كل التضحيات سدى. فإذا وقع ذلك عمّ اليأس بين الناس فلا يفكر أحد بعد بالخروج على الطاغية الذي

سيزيد طغياناً وظلماً إذ يأمن أن يتصدى له أحد. وعلى كل حال، فإن الرسل لم يطلبوا غير السلم واسترجاع أراضيهم، فإن نكثوا بعد أن يتمكن الثوار، فإن الذي تغلب على الطاغية الذي غلب الغزاة من قبل، قادر على هزيمة الغزاة من بعد. تمسك كلا الطرفين برأيه وحجته، وخرجوا من الاجتماع على غير اتفاق. وكان عاقبة ذلك أن انشق أصحاب الرأي المخالف عن المعلم مع جماعات من الثوار الذين أنهكم نضوب الموارد مع تطاول الوقت، وعاقدوا الممالك التي عرضت المعونة على شروطها، ولم يكن إنكار السلطان على هؤلاء بأشد من إنكار المعلم عليهم. ولأول مرة يجتمع المعلم والسلطان على موقف واحد من هؤلاء المارقين، وما هي حتى وجد المعلم نفسه مضطراً للحرب ضد عدوين: عساكر السلطان والجماعة التي انشقت عنه، ثم أخذت تزاحمه على الناس والمناطق والأنحاء. وكان من الطبيعي أن يتنامى تذمر الناس من جميع الأطراف: السلطان وجماعات الثوار المتناحرين الذين قسموا جهدهم بين مقاتلة عساكر السلطان ومقاتلة بعضهم بعضاً. وتساءل الكثيرون: من يقاتل من؟ ولماذا؟ وبالطبع، كان السلطان المستفيد الأعظم من كل ذلك.

وقد وافق ذلك فرحته العظمى بالمولود الذكر الذي أنجبته سلمى له. جلس على حافة سريرها يتأمّله لوقت طويل دون أن يزيح بصره عنه. ولأول مرة تلحظ سلمى دمعة تترقرق في عينيه ثم تنحدر على خديه. فأجابته بدموع مثلها. ومالت بوجهها لتنظر في الطفل. وفي تلك اللحظة لم يشغل شيئاً من تفكيرها أنها أنجبت ولي العهد للسلطان الذي قتلت عساكره والديها واسترقتها. فالذي كان يملأ وعيها ووجدانها الاحتفال بمعجزة الحياة التي حملتها في

أحشائها تسعة أشهر، قبل أن تتجلى لها بنورها الباهر الذي قهر كل الظلمات السابقة. وكان هذا الرجل، عبد الله بن سعد شريكها في هذه الهبة العظيمة. وكفى بذلك صفةً له في نفسها تغني عن باقي الصفات. ولما رأت طول نظره في الطفل، أحبت أن تداعبه قليلاً:

- قد شغلك المولود عن الوالدة!

رفع رأسه ونظر إليها بحب جارف:

- بل أراكما معاً فيه؛ فيتضاعف حبي له، وحبي لك.

- لا يعجزك الجواب الجميل.

- الفضل لمن يلهمني إياه! فأنت المعنى، وأنا لسانه.

- وهذا أيضاً قول جميل.

أعاد النظر إلى الطفل:

- ألا ترين أنه يشبهك؟

- بل أراه يشبهك. ولا أراك تحسن التشبيه.

- ربما... لعلي أسقط عليه شبه من أحب.

- إن صحّ هذا، فلعلي قد شبهته بك للسبب نفسه!

وقعت العبارة من نفسه موقعاً مؤثراً. وتنبه إلى أن هذه هي المرأة الأولى التي تعبر له عن حبها له بلسان المقال، بعد أن كانت تكتفي بلسان الحال. ووجد نفسه ينكبُّ على رأسها يقبّل جبينها، ثم يأخذ بيديها ويقبلهما دون حرج ثم يضعهما على وجنتيه.

على الرغم من الأحوال المضطربة في البلاد، زُفَّت البشرى بولادة ولي العهد يحيى بن عبدالله بن سعد. ورُفِعت الزينات في حاضرة السلطان، وجُمِع الناس لإعلان الفرح ومشاهدة المهرجان الاحتفالي الذي نظمه القصر. وشاركت فيه الفِرَق الموسيقية وضربت فيه الطبول والصناجات، وعرضت فيه الحيوانات الغريبة التي كانت قد جمعت من بلاد مختلفة، ومنها الفيلة المزينة والزرافات والأسود في أقفاصها وأنواع النعام والطواويس. وأقيمت حلقات الرقص والغناء في الساحة العامة، وتفنن الحواة في عرض مهاراتهم، ونظمت مباريات لسباق الخيل ولعبة الكرة والصولجان في الميادين المفتوحة عند أطراف المدينة، ومُدّت خوانات الطعام والشراب لكل الناس. والحقيقة أن جلّ الناس في هذه المناسبة لم يخرجوا مضطرين على كره منهم كالعادة. فقد صاروا في حاجة ماسة إلى فسحة تروّح عنهم بعد مرور عامين كاملين على ثورة لم تنجز حتى الآن وعودها، وآلت معها الأوضاع إلى مزيد من الضيق والعناء والخوف وتقتير الأرزاق، واختلط فيها الحق بالباطل، وانقسمت على نفسها وداخلها المفسدون وأهل الهوى والغرض.

أما المعلم فزاده الخبر وحشة على وحشة، وكآبة على كآبة. فها هو الطريق الذي سلكه يضيق عليه، والمرأة التي أحبها وكان يرجو أن يفوز بها على السلطان، ها هي تنجب ولي العهد لعدوه اللدود. ووجد نفسه يخلع مغفرة رأسه ودرع الزرد الذي يقيه الغائلة، ويقذف بهما بعيداً. فما الذي يخشى عليه بعد! وصرف حرسه الذي لم يكن يفارقه على الرغم من اعتراضهم ومناشداتهم، وآثر الاختلاء بنفسه في موضع من الجبل الذي يعتصم فيه. وأخذ ينظر في الأفق

البعيد الذي لم يعد يدري ما يخبئ له، بعد أن كان واثقاً من وجهته وخطواته ومآلاته أول الأمر. لقد ذهب عنه برد اليقين، ليغمره حرّ الظنون، ومعها الأسئلة الموجعة. هل تاهت قدماه عن الطريق، أم أن الطريق نفسه كان غدّاراً فتغير كما تغير كثبان الرمال مكانها بفعل الرياح التي تهب على هواها، لا على هوى الراكب الساري؟ هل أخطأ الرمي أم أن الهدف الذي ظنه واضحاً ثابتاً شرد عنه شرود القطاة؟ هل مطلب العدل في هذه الدنيا بعيد المنال إلى هذا الحد فلا يتحقق على تمامه إلا في الآخرة أمام الديّان؟ وحتى لو كان تمام العدل متعذراً في دنيا الناس، فهل يجب أن يثبّط ذلك عن طلبه على قدر الوسع؟ وهل يصحّ ألا نقارب إن لم يكن في وسعنا أن نسدّد؟ وهل يمنع شيوع البغي وتغلبه في الناس من مناهضته؟ ألم يصف الله المؤمنين في كتابه العزيز بقوله (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون)؟ ألم يمن الله على المستضعفين في الأرض بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين. ألم يكتب الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون؟ ولكن أين ومتى، ومن هم هؤلاء الصالحون الذين يرثون الأرض؟ لقد رأى بعض أصحابه يتفرقون عنه، ثم ينقلبون خصوماً وأعداءً. هل المُثُل التي تمسك بها وأبى أن يقايض عليها من أسباب الضعف، وأن الحديد لا يفُلُّه إلا الحديد، وأن السلاح الذي تقاتل به يجب أن يكون من نوع سلاح العدو؟! ولكن، إذا ألزمك العدو طرقه ألا يكون قد جعلك مثله فأسقط حجتك عليه؟

غرق في أفكاره وأسئلته التي لا تنتهي حتى غربت الشمس وغلفه الظلام إلا من بقايا الغسق. وحين نهض وأرجع بصره في السماء التي ظهرت نجومها على خجل اهتدى إلى خاطر أخير: لا،

ليس طلب العدل والحق محلاً للسؤال. وطالب الحق إن لم يفز إلى حين، فلا أقل من أن يكون هادياً ملهماً، حتى يفوز من يليه حين تكتمل الأشراط والأسباب. والله وعد طالب الحق بإحدى الحسنيين، فهو فائز بذاته على أي الحالين.

سرّى هذا الخاطر الأخير عنه. ولكنه لم يعد بعد ذلك إلى ارتداء مخفرته وزرده أبداً! وآثر أن يكون بين رجاله كأحدهم، فلا يحيط به حرس خاص مهما تقتضِ الضرورة!

* * *

حين دخل عليها السلطان كانت ترضع طفلها وقد صرفت الوصيفات. وبينما أخذ يخلع قطيفته ويتخفف من بعض ثيابه، أخذت تقلب بصرها بين الطفل وبينه. وبدت شاردة كأنها تدافع خاطراً شغل تفكيرها.

ولما تنبه إلى ذلك قال مداعباً:

- ما بال أم ولدي قد غفلت عن رد تحيتي؟

أجابت بعد لحظة صمت:

- ألا تجلس إلى جانبي يا مولاي.

- بل قولي يا عبدالله، يا أم يحيى بن عبدالله.

جلس إلى جانبها، وعادت تنظر في طفلها.

- نعم... يحيى... يحيى بن عبدالله.

نطقت اسم يحيى بنبرة التأكيد لغاية في نفسها. ثم التفتت إلى السلطان ونظرت في عينيه قبل أن تتحدث.

- حين أنظر إلى يحيى، أرى طفلي وطفلك، فلذة كبدي وكبدك أكثر مما أرى فيه ولي عهدك. فلو أن أباه لم يكن السلطان لما كنت أقل سعادة به وحباً له وحرصاً عليه.

هز السلطان رأسه متفهماً:

- هل تصدقين يا سلمى؟ هذا ما أشعر به أيضاً، وإن كنت السلطان. ولكن، أرى أن في نفسك خاطراً تريدين البوح به. فلا ترددي.

- أريد لابننا يحيى أن يحيا حياةً طيبة آمنة لا خوف فيها ولا ضيق. ولا يأمن أحدنا إلا حيث يحيا الآخرون آمنين في حال من السلام والرضا.

دقق النظر فيها مستطلعاً المزيد.

- و... أعني... ألا ترى أن هذه الحرب قد طالت وكثر القتل وضاقت الأرض بأهلها؟

هز رأسه من جديد هزة خفيفة وشرد ببصره متفكراً واجماً:

- فإلى متى يا سيدي؟ ألم تقتنع بعد أنها حرب لا يمكن أن يكسبها أحد الطرفين؟

قال بشيء من الأسف:

- بل صاروا أطرافاً. وداخل الأعداء المجاورون بعضها. نقاتل جماعات العصاة المتفرقة ويقاتلوننا، ثم يقاتل بعضهم بعضاً،

ثم نلاحق عصابات اللصوص والشطّار الذين أغرتهم الفوضى فنشطوا في الأنحاء. وقد نجد أن جماعة ذلك... المعلم، قد سبقوا إلى ملاحقتهم، فلا ندري هل نميل معهم على الشطّار أم نميل مع الشطّار عليهم.

تنبهت ملامحها والتمعت عيناها، وسارعت إلى الكلام:

- هذا هو يا مولاي... يا سيدي... يا أبا ولدي... يا قرة عيني... يا عبدالله. ما جمعك وإياه على مقاتلة اللصوص وأهل الشرور، على ما يفرّق بينكما، إلا نسب قديم بينكما.

أدهشته العبارة الأخيرة، فتفحصها متعجباً مستطلعاً:

- نسب قديم بيني وبينه؟

- ألا تذكر كلامك معي يا سيدي في أول هذا الأمر؟ ألم تقل إنه يحاربك بمطلبك القديم الذي طلبته ولم تدركه، وبقي ماثلاً في نفسك. ألم تقل أنك لا تستطيع أن تدفع إعجابك به، وأن ترى فيه على الرغم من كل شيء، صورة من الرجل الذي كنته قبل السلطنة، فكأنك في حربك معه تغالب بعضاً منك؟ هل تذكر هذا كله يا سيدي؟ هذا هو النسب القديم بينكما...

أطرق شارداً يفكر، وران الصمت لحظات، بينما كانت تتمعن فيه ببصرها... ثم استأنفت:

- لقد رفض الاستقواء بعدو البلد، كما رفضت أنت أن توادعهم وتنزل لهم لتفرغ لقتال المعلم... وخالفت في هذا رأي أعوانك، كما خالف هو رأي أعوانه. فكان من ذلك أن انصرفوا عنه

وانقلبوا عليه كما انقلبوا عليك فقاتلهم كما يقاتلك، وقاتلتهم كما تقاتله. ألا يدّلك هذا على شيء يا سيدي؟

بقي على شروده وتفكيره وقتاً آخر، قبل أن يرفع رأسه.

- وماذا عساي أفعل؟

فاجأه جوابها السريع بصوت لا تردد فيه:

- اجعله حليفك يا سيدي؟

انتفضت جوارحه، وتفحصها مستطلعاً المغزى.

- كيف قلتِ؟

- نعم يا سيدي. لا أقول تصالح معه، فإني أعلم أن هذا ليس ممكناً. ولكنك تستطيع أن تتخذه دون أن يدري عوناً لك على تحقيق مطلبك القديم الذي هو مطلبه الجديد... العدل والشورى، وإطلاق المسجونين، والتخلص من الفساد والفاسدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وكل من أرهق الناس ببطشه، ومنهم قادة الشرطة والعيون الذين يحصون على الناس أنفاسهم، ويأخذونهم بالظنة والشك، ويستعملون الولد على والده والوالد على ولده، والأخ على أخيه، بل المرأة على زوجها، ثم التوسعة على الناس ورفع المكوس التي أرهقتهم، وتعوض عن ذلك بأن ترد على الخزانة فضول أموال الأعيان والأعوان التي حازوها غصباً وسَكَتَّ عنها أو منحتهم إياها لقاء نصرتهم لك ضد أعيان الحكم السابق، ثم ضد أصحابك الذين واطأوك أول الأمر ثم انقلبوا عليك. نعم، ربما ألجأتك الضرورة، أو كان ذلك من باب الدفع بأهون الأضرار.

ولكن لك الآن حجة عليهم لا يستطيعون دفعها... فإما ذاك، وإما أن يذهب الملك كله ومعه ما حازوه وبلغوه به، بسبب هذا القتال الذي تطاول أمده، وعمّت معه الفوضى، وتدخل فيه عدو البلد، ويوشك أن يذهب به كلّه.

التقطت أنفاسها بعد هذا الكلام المتدفق السريع الذي أرادت أن تخرجه مرة واحدة لتستريح من ثقله. ثم أردفت بلهجة أكثر هدوءاً.

- بذلك يا مولاي تسقط حجة المعلم وجماعته عليك. فهذا عين ما طلبوا بالخروج على دولتك، وجمعوا عليه الناس. وبذلك يا سيدي تكون قد انتصرت به...

التفت إليها مجدداً بنظرة تأمل... وقال ما خشيت أن تقوله أو تسمعه.

- بذلك أنتصر به... وأنتصر عليه.

أطرقت لحظة قصيرة، وهزّت ولدها...

- فلنقل: بذلك تنتصر الرعية بكما! ويتحقق مطلبكما. ويحيا ولدنا يحيى مع غيره حياة طيبة آمنة... بعون الله.

بادر السلطان منذ اليوم التالي إلى اتخاذ القرارات اللازمة فأقال عدداً من القادة والأعوان والوزراء الذين شاع في الناس فسادهم وبطشهم، واستبدل بهم نخبة من أهل الثقة المشهود لهم بالكفاية والنزاهة. وحلّ شبكة العيون المرعبة، وأطلق المحبوسين إلا من كان محبوساً في جرم بحق الناس. وأعفى كبار القضاة الذين

أجمع الخلق على بغضهم وفسادهم، وكانوا يقضون بالرشوة للغني على الفقير والقوي على الضعيف، بل كانوا يقضون على هوى السلطان نفسه. وعيّن بدلاً منهم نخبة من القضاة المعروفين بالعدل والحزم، وكانوا قد أُقصوا عن مناصبهم قبل ذلك لرفضهم الانصياع حتى لأوامر السلطان، بل كانوا من أجرأ الناس عليه، حتى همّ أن يبطش بهم. وقضى بالمرسوم الذي قرئ على الناس بإنشاء ديوان للمظالم، جعل عليه عدداً من أفضل القضاة الآخرين ممّن اتفق الناس جميعاً على صدقهم وعدلهم، وكانوا أيضاً في جملة من تم إقصاؤهم سابقاً. وأمر بأن يبقى ديوان المظالم مفتوحاً للناس ليلاً ونهاراً يتناوب عليه القضاة. وأعلن في مرسومه أنه يعطي هؤلاء القضاة عهد الله وذمة رسوله ألا يُضارّ أحد منهم في حكم يقضي به ولو كان على السلطان نفسه. وما التبس عليهم من الشكايات رفعوه إليه. وأعلن كذلك رفع المكوس والإتاوات إلا ما شرع الله من الزكاة، وأنه أمر بخفض النفقة المقررة لرجال دولته وأهل خدمته وشؤون قصره إلى الثلث، وأنه يبدأ بنفسه على مثل ذلك، ويزيد عليه بردّ نصف ثروته إلى بيت المال الذي جعل عليه أيضاً جماعة من أهل الثقة العدول، وينزل عن ثلثي إقطاعاته ودُوره في أنحاء البلاد، وعلى أعوانه وأهل خدمته مثل ذلك. وأمر كذلك بإنشاء مجلس لمشورته ممن تواطأ الناس على صلاحهم وعدلهم وعلمهم وسماهم مرسومه للناس. ثم أعلن أنه فتح باب التوبة والعودة لكل الخارجين إذا ألقوا سلاحهم وثابوا إلى منازلهم، فينالهم عفوه، ولا يُسألون عما كان منهم، ومن شاء منهم أن ينضم إلى الجيش لمناجزة عدو البلد: حاكمها ومحكومها، كان له ذلك بعد الاستيثاق منه.

فمن أبى بعد هذا فقد ثبت عليه البغي ووجب على الجميع مقاتلتُه كما قضى الله في الفئة الباغية. وأنهى ذلك كله بالتحذير من عدو البلد الذي داخل بعض العصاة، وأن الأخبار قد تواترت بأنه أخذ يحشد جيوشه ليميل على البلاد والعباد في غمرة هذه الفتنة. فالمضي فيها بعد هذا كله خيانة لله ورسوله وتمكين للعدو.

لم يصدّق الناس ما أعلن عليهم حتى رأوه يتحقق أمام أعينهم وتظهر آثاره السريعة في حياتهم. وما هي حتى بدأت ألسنتهم تلهج بالثناء على السلطان الذي صدع أخيراً بالحق... وعلى المعلم الذي ألزمه ذلك. ورجوا أن يفيء هو أيضاً إلى السلم وعفو السلطان.

* * *

أما أن يفيء المعلم إلى السلم، فلم يكن له خيار آخر بعد بضعة شهور من تلك التغييرات التي أجراها السلطان. فقد استجاب لدعوة العفو جلّ رجاله الذين أرهقهم طول القتال والضنك وقلة المؤونة، وخذلهم من خذلهم من داخل جماعتهم، مع غلبة الشك بالقدرة على الفوز، وتنامي الضعف. وها هي مطالبهم قد تحققت على كل حال، وشهد بذلك من ثاروا من أجلهم، وما كان حجة لهم صار حجة عليهم.

وأما أن يفيء المعلم إلى عفو السلطان، فما كان ليفعل ذلك.

كان يجلس وحده على صخرة جبلية ويحدّق في الأفق البعيد كما اعتاد منذ وقت. وغمره شعور الغريق الذي صارع الموج طويلاً، ثم استسلم للبحر. ولبث حائراً يحدِّث نفسه فيما يصف به هذا المآل. هل كانت هزيمة ساحقة؟ إذا نظر حواليه الآن فلن يجد غير عشرين

رجلاً أو نحو ذلك، ممن أصروا على البقاء معه وفاءً وتذمماً، حتى تكون مصائرهم كمصيره. فإذا كان هذا هو المعيار، فالجواب لا بد أن يكون: نعم، كانت هزيمة ساحقة. وأما إذا نظر في النتائج، فقد تحققت الغاية، وما كانت لتتحقق بغير ثورته. فهل يصف ذلك بالنصر؟! ولكن لماذا لا يستطيع أن يبتهج ابتهاج الفائز، ولماذا يدفع في الوقت نفسه شعور المهزوم حتى لا يتهم صدقه بأنه خرج من أجل الناس لا من أجل نفسه وفوزه الشخصي!!

انتصب واقفاً بعد حين، ومشى عائداً نحو من تبقى من جماعته، ورأوه يعد جواده للرحيل. ولما عرفوا نيّته، قال قائلهم:

- نمضي معك أنّى سرت.

قال:

- بل ترجعون إلى دياركم وأهليكم. وهذا آخر أمر آمركم به. وإني أسألكم بالله أن تطيعوا، وأن تكون الطاعة آخر عهدي بكم.

صمتوا واجمين وهو يعتلي جواده، حتى قال أحدهم:

- فإلى أين المسير؟

أجاب:

- لا أدري. سيهديني الله إلى السبيل.

بعد ثلاثة أيام، كان السلطان في مجلسه الخاص، حين دخل الطواشي عليه وأعلمه أن رجلين مجهولين يلحّان على لقائه في أمر عظيم. ولما دخل قاعة الحكم، دخل حرس الباب عليه بالرجلين

اللذين بدت عليهما وعثاء السفر، وكانا يحملان صندوقاً، وضعاه عند قدمَيْ السلطان. قلّب بصره بينهما وبين الصندوق.

- ما هذا؟

قال أحدهما:

- ائذن لي يا مولاي.

ثم تقدم نحو الصندوق وفتحه، ثم تراجع. اهتزت ملامح السلطان بقوة إذ وقع بصره على ما في الصندوق.

- ما هذا؟ أو من هذا؟

أجاب أحدهما:

- رأس عدو مولانا... المعلم... علي بن الحسن!

ازداد وجه السلطان انقباضاً، ولبث لحظات على ذلك، ثم أغلق الصندوق من جديد. وتوجه إلى الرجلين.

- من أنتما؟ وكيف فعلتما هذا؟

أجاب المتحدث نفسه:

- كنا من جماعته يا مولاي في أول أمره، غرّنا البعض عن أنفسنا حتى تبين لنا الحق فتركناه وجماعته. وبعد انتهاء هذه الفتنة، كنت وصاحبي هذا نصيد في بعض النواحي. فرأينا رجلاً يعبر على جواده وحيداً. فلما دققنا النظر عرفناه. قلنا: عدو مولانا قد أبى الصفح والعفو، فنقتله فنفوز برضا مولانا... و... جائزته!

هز السلطان رأسه هزة خفيفة وزمّ شفتيه.

- ستأتيكما الجائزة من فوركما.

ثم توجه إلى حرسه.

- خذوا هذين الشقيين فاضربوا عنقيهما الساعة. وخذوا هذا الصندوق، فصلوا على الرجل صلاة الجنازة، ثم أحسنوا دفنه.

نزل الرجلان على ركبتيهما يولولان ويناشدان السلطان الصفح والرحمة. ولكن الحرس جذبوهما بشدة وخرجوا بهما، وبالصندوق... بينما نزل السلطان على الأريكة مغتماً ووضع رأسه بين كفيه مطرقاً، يلعن في نفسه الخيانة والخائنين، والغدر والغدّارين.

* * *

شاع الخبر في العامة أن المعلم علي بن الحسن قد قُتل غدراً، وأن السلطان نفسه من أخذ بثأره. عمّ الحزن وبكاه الكثيرون. وفي عدد من المساجد صلّى الناس عليه صلاة الغائب دون أن يعترضهم أحد. وبقدر ما أحزنهم قتله، عظّموا عمل السلطان في القاتِلَيْن. وبعد ردح من الزمان دخل المعلم في المخيلة الشعبية التي فتحت له آفاقها يتبوّأ منها حيث يشاء، وتعيد رسمه على هوى أحلامها وآلامها وتستضيء بمصباحه في دجى الليل، إذ تقصّ من أخباره على الأجيال الجديدة... أخباره التي وقعت حقاً، وأخباره التي تبتدعها أحلام الخلاص.

أما سلمى في ذلك الوقت فبكته بكاءً مراً في خلواتها، واجتهدت أن تخفي دموعها عن السلطان، وإن رأت مدى اغتمامه بمقتله على ذلك النحو، فكبر في عينها. هذان رجلان اقتتلا حيناً من

الدهر، فكان من حظ أحدهما أن يغدر به بعض رجاله السابقين، وكان من الثاني أن يثأر له ويغتم لمصيره! وما كانت هزيمة الأول إلا لأن الثاني انتصر أخيراً على طريقته لأحلام الأول وغاياته! ولكن مفارقات الأقدار لن تتوقف عند هذا.

* * *

كان السلطان عبدالله بن سعد في جناحه الخاص يتصفح مخطوطاً قديماً حين سمع طرقاً قوياً ملحّاً على الباب. وحين فُتح الباب وجد كبير الخدم يرتجف مضطرباً.

- ما بالك، ثكلتك أمك.

أجاب الخادم على الفور بصوت متقطع...

- قائد الحرس السلطاني يا سيدي... يطلب لقاءك الآن لأمر جلل.

أسرع السلطان إلى قاعة الحكم حيث وجد قائد الحرس في انتظاره وقد بدا عليه القلق الشديد. وقبل أن يسأله السلطان بادر إلى الكلام.

- خيانة يا سيدي. بلغني الساعة أن قطعاً كبيرة من العسكر يتحركون للإحاطة بالقصر... والغرض...

تردد لحظة قصيرة وتابع:

- خلعك يا مولاي.

وقع الخبر كالصاعقة على السلطان، ولكنه تمالك نفسه وحافظ على رابطة جأشه.

- من تولى كبر ذلك؟

- حاجبك يا مولاي، ومعه جملة من رجال الدولة الذين نقموا عليك ما انتقصت من أموالهم وأملاكهم وأنك كففت أيديهم بتلك التغييرات التي أجريتها، وخشوا على أنفسهم مصير القادة الذين عزلتهم، فتواطأوا مع قادة الجيش، وأغروهم بالمال والإقطاعات والمناصب. أما حرسك فهم على العهد يا سيدي وقد أخذوا أهبتهم. وبدأنا بتحصين الأبواب وتوزيع المقاتلة. فانظر ماذا ترى لنفسك وأهلك يا سيدي.

أجاب السلطان من فوره:

- عد إلى عسكرك حتى آتيكم.

مضى مهرولاً إلى جناح سلمى. وحين أعلمها بالخبر انهارت باكية ترتجف... فنهرها بحزم.

- ليس هذا أوانه. اجمعي من المتاع والمال ما تقدرين عليه ويصلح أمرك. وستدخل عليك الآن وصيفتان تعينانك. فإذا فرغتن، فاخرجي بنفسك ويحيى مع الوصيفتين والخادمين اللذين ينتظرانك لدى الباب... ليقودا الجميع إلى السرداب الذي ينتهي على مسافة آمنة خارج القصر. وقد أمرتهما أن يبقيا في خدمتك مهما يحدث، وأن ينزلاكم منزلاً آمناً يعرفانه حتى ينجلي هذا الأمر.

قالت باكية:

- وأنت يا سيدي. ألا تنجو بنفسك معنا... لا كان المُلك ولا كان طالبه.

أرسل إليها نظرة عتاب:

- ليس الملك ما يبقيني خلفك الساعة. أنتِ من دون الخلق تعلمين ما أعني.

وبالطبع كانت تدرك المعنى. السلطان إما في القصر وإما في القبر. أما الفرار، فالمروءة تأبى، ومعها أسباب الشجاعة والبطولة.

احتضنها بحرارة غامرة ودموعها تنسكب على عنقه وصدره. ثم قبّل طفله.

- الأهم الآن، أن يحيا ولدنا يحيى، ومعه أمّه... سلمى... حبيبتي سلمى.

* * *

استبسل الحرس السلطاني بالدفاع، يقودهم السلطان بنفسه. ولم يجد المهاجمون إلا أن يقذفوا الأسوار والأبواب بالمنجنيق. وحين تمكنوا من اقتحام ساحات القصر احتدم القتال. وأبدى السلطان من ضروب الفروسية والقتال ما توقع أعداؤه منه. لم يكن يقاتل عن سلطانه وحياته، فقد علم أنهما على وشك الذهاب، وإنما كان يقاتل عن شرفه... شرف الرجل عبدالله بن سعد، وعن الذكرى التي يحبُّ أن يورثها لولده ورعيته، بعد أن استدار آخر أمره على أوّله!

منذ الآن، سيذكر الناس أنه دفع حياته ثمناً للإصلاحات التي أرادها لشعبه، وأنه لم يُقتَل على يد أحد من العامة التي خرجت عليه يوماً مع المعلم. وإنما كان مصيره كمصير المعلم: كلاهما قُتل على يد الخونة من رجاله، وفي سبيل الغاية نفسها!

* * *

كان ركب سلمى يقطع قفراً واسعاً خالياً من البشر. وكانت عيناها قد التهبتا من طول البكاء. ففي وقت قصير فقدت أعظم رجلين في حياتها. ولم تستطع دفع السؤال الموجع الملحّ الذي سيلازمها إلى آخر عمرها: إلى أي مدى كان إسهامها في المصير الذي انتهيا إليه؟ وكيف لجارية سبيّة مملوكة أن تملك هذا القدر من مصير خصمين عظيمين ندّين: سلطان وزعيم ثورة؟ كانت تريد أن تنصر أحدهما بالآخر، لتنصر بهما معاً شعباً يطلب الحرية والعدل والكرامة والخبز. فكانت العاقبة أن تغلب عليهما العدو نفسه، فلقيا مصيراً واحداً: الموت والشرف والحياة في ذاكرة الناس... كل ذلك معاً. فهل تجد في ذلك بعض العزاء!

مكتبة
t.me/t_pdf

- إلى أين المسير؟

سألها أحد الخادمين الوفيين.

نظرت في الأفق البعيد، ثم نظرت في طفلها التي كانت تضمه إلى صدرها، ثم أجابت:

- سنعرفه حين نبلغه.

WHERE THE TWO SEAS MEET

رواية

مُلتقى البحرين

إذا كان على كلّ من الخصمين أن يواجه متاهته، فإنّ عليها أن تضيع بين المتاهتين. لماذا كُتب عليها أن تكون مَجمَع الأضداد لا تلتقي إلّا لتتصادم؟ هذان رجلان يلتقيان فيما يفرّقهما، ويفترقان فيما يجمعهما، أو هما مَجمَع البحرين يلتقيان، ولكنْ بينهما برزخٌ لا يبغيان. وهي هناك في البرزخ الّذي تتلاطم فيه أمواج البحرين العاتية .. هنا كادت تلعن نفسها وحظّها الّذي جعلها مطلبًا عزيزًا لأعظم رجلين في حياتها .. وإنّهما ليتحاربان الآن في داخلها وبها. كيف يمكنها أن تحتمل ذلك كلّه؟ هل يجب أن ينتصر أحدهما بهزيمة الآخر؟ أم يمكن أن ينتصرا معًا على نحوٍ ما يتحدّى العقل والمنطق، فيلتقي الماء على أمرٍ قد قُدِر؟

من الرواية

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019